كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية
- - - - - -

الصمت البليغ
في رواية " التيه " لعبد الرحمن منيف
دراسة تداولية

إعداد

د/ صابر محمد السيد جويلي

أستاذ النقد والبلاغة المساعد

بقسم اللغة العربية – آداب الإسكندرية

(العدد الأربعون)

(إصدار أكتوبر ـ الجزء الأول)

(١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م)

الصمت البليغ

في رواية " التيه" لعبد الرحمن منيف. دراسة تداولية

صابر محمد السيد جويلي
قسم النقد والبلاغة، بقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مصر
البريد الإلكتروني: saber. geweely@alexu. edu. eg

الملخص:

الصمت ظاهرة متأصلة وقيمة متجذرة في أعماق منظومتنا الفكرية العربية الإسلامية، ثم إنه ظاهرة سردية وأسلوبية لا تخطئها العين في الأدب العربي الحديث أيضًا، وفي الرواية بالذات، وله فيها دواعيه، كما أن له معانيه ووظائفه البلاغية والتداولية. ومع هذا لم يلق من الدراسة ما هو جدير به. وهذا البحث يحاول أن يُسهم في سد هذه الثغرة، عبر دراسة تداولية الصمت في رواية" التيه" لعبد الرحمن منيف، مع الموازنة بالصمت في روايات غائب طعمة فرمان وأحمد خالد توفيق؛ لشهرة هؤلاء الثلاثة، وتمثيلهم لثلاثة أقطار عربية كبيرة، في فترات متنوعة من النصف الثاني من القرن العشرين من ناحية، ولذيوع ظاهرة الصمت في روايات الأول والثاني، وندرته في روايات أحمد خالد توفيق من ناحية ثانية، وبضدها تتميز الأشياء. ثم إن الصمت كان عندهم مقصودًا متعمدًا، وكان موظفًا فنيًّا لأداء رسالة ما، وكان ماسًّا بالخطاب مساسه بالبناء السردي والحبكة. وهذا البحث يحاول دراسة هذه الظاهرة، وفق منهج وصفيٍّ تحليليّ، قائم على انتقاء عينة عمدية تمثل مجتمع البحث تمثيلًا دقيقًا.

الكلمات المفتاحية:

الصمت، السكوت، التداولية، الصمت البليغ، الأدب العربي الحديث، الرواية العربية المعاصرة، عبد الرحمن منيف، مدن الملح.

The eloquent silence in the novel " The Lost" by Abdul Rahman Munif. A pragmatic study

Saber Mohamed El-Sayed Gouili

Department of Criticism and Rhetoric, Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Alexandria University, Alexandria, Egypt.

Email: saber. geweely@alexu. edu. eg

Abstract:

Silence is an inherent phenomenon And a value rooted in the depths of our Arab-Islamic intellectual system . Then it is a narrative and stylistic phenomenon that cannot be missed in modern Arabic literature as well, in the novel in particular . It has its motives, as well as its meanings and rhetorical and deliberative functions. Despite this, nothing has been received from the study that it deserves. This research tries to contribute to filling this gap, By studying the pragmatic silence in Abdul Rahman Munif's novel At-tyh " The Wandering" . With comparison to silence in the novels of Ghaib Tohme Farman and Ahmed Khaled Tawfiq; Because of the popularity of these three, and their representation of three large Arab countries, in various periods of the second half of the twentieth century on one hand, And the prevalence of silence in the first and second novels and its rarity in the novels of Ahmed Khaled Tawfiq on the other

hand, and against it, things are distinguished. Then the silence was deliberately intentional, and it was technically employed to perform a message, and had a strong connection with discourse, narrative construction and plot. This research attempts to study this phenomenon, according to a descriptive and analytical approach, based on selecting an intentional sample that accurately represents the research community.

Keywords: Silence, Silence, Dragmatics, Eloquent silence, Modern Arabic literature, Contemporary Arabic novel, Abd al-Rahman Munif, Cities of salt.

المقدمة

يتنامى الاهتمام " بخطاب الصمت" ، ودلالاته في مواقف التواصل اللغوي المختلفة، العامة منها والخاصة التي في النصوص الأدبية – ويُعنى بها البحث الراهن – لاسيما في خضم الدراسات التداولية؛ من منطلق أنَّ النظام التلفظي أهم الأنظمة التواصلية المستعملة في صياغة الخطاب، لكنه ليس الوحيد في هذا المضمار؛ فمعه أنظمة تواصلية غير تلفظية، يمكن من خلالها صياغة الخطابات، منها الصمت، ذلك النظام العلاماتي التواصلي البلاغي المهم[١]. وبهذا تسنح فرصة دراسة هذا الموضوع المهم استكمالاً لمنجزات البلاغة العربية من ناحية، وبأدوات منهجية جديدة من ناحية أخرى، عبر نافذة الصمت من ناحية ثالثة.

مشكلة البحث وقضيته:

الصمت ظاهرة متأصلة وقيمة متجذرة في أعماق منظومتنا الفكرية العربية الإسلامية، وآية ذلك أنا نجد له حضوره البارز في ميدان الدراسات القرآنية والحديثية[٢]، والفقهية، وفي كتب الزهد والرقائق. ثم هو حاضر بقوة أيضًا في كتب الأدب العربي القديم[٣]. وانتبه القدماء لأهميته البلاغية، ودوره في" البيان" عن المعاني، منذ الجاحظ، الذي نظر إلى البيان نظرة تتخطى اللغة المنطوقة المكتوبة، فقال: " البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى. . . لأن مَدَارَ الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هي الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغتَ الإفهامَ وأوضحتَ عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع" [٤]

ثم إن الصمت ظاهرة سردية وأسلوبية لا تخطئها العين أيضًا في الأدب العربي الحديث، وفي الرواية بالذات، التي له فيها دواعيه، كما أن له فيها معانيه ووظائفه البلاغية والتداولية. ومع هذا لم يلق من الدراسة ما هو جدير به، وهذا البحث يحاول أن يُسهم في سد هذه الثغرة [٥]

ولم يكن اختيار دراسة رواية " التيه" – أول أجزاء خماسية مدن الملح لعبد الرحمن منيف – خبط عشواء، كما لم تكن الموازنة بروايات غائب طعمة فرمان وأحمد خالد توفيق وغسان كنفاني ضربة لازب، وإنما هي اختيارات لها ما يبررها؛ من شهرة هؤلاء الأربعة، وتمثيلهم لأربعة أقطار عربية كبيرة، وفترات زمنية متنوعة في الثلث الأخير من القرن العشرين، وذيوع الصمت في روايات الأول والثاني وندرته في روايات الثالث والرابع، وبضدها تتمايز الأشياء. ثم إن الباحث استشعر حين قرأ روايات لهم جميعًا أن الصمت كان عندهم مقصودًا متعمدًا، وأنه كان موظفًا فنيًا لأداء رسالة ما، وأنه ماسٌّ بالخطاب مَسَاسَه بالبناء السردي والحبكة. وقد أغرى هذا بدراسةٍ تحاول تتبع هذه المسألة وسبر أغوارها.

فروض البحث:

الفرض الرئيس هنا هو أن الصمت ليس مجرد مكمل للخطاب المنطوق، وإنما له حضوره الفني المهم. والباحث يحاول استجلاء خصائصه في الرواية محل الدراسة، ومدى توظيف صاحبها إياه في خطابه السردي، موازنًا ما فيها بما في سائر الأعمال الأدبية المختارة.

منهج البحث :

يحاول هذا البحث دراسة ظاهرة الصمت، وفق منهج وصفيٍّ تحليليّ، قوامه انتقاء عينة عمدية، الظنُّ فيها أنها تمثل مجتمع البحث تمثيلاً دقيقًا[٦]

حدود البحث:

د. عبد الرحمن بن إبراهيم المنيف، الروائي والناقد والخبير الاقتصادي والكاتب الصحفي السعودي المعروف، بل واحد من أشهر الروائيين العرب في القرن العشرين. تنتمي عائلته إلى منطقة القصيم في قلب الجزيرة العربية، وكان أبوه من كبار تجار نجد. وُلد عبد الرحمن في عمَّان بالأردن، وتنقل بينها وبين العراق ومصر

ويوغوسلافيا وسوريا ولبنان وفرنسا، قبل أن يقيم في سوريا حتى مات في دمشق عام ٢٠٠٤م. حاز جوائز، منها جائزة العويس الثقافية، وله أكثر من ثلاثين كتابًا منها أعمال روائية، أشهرها رواية(شرق المتوسط)، وخماسية (مدن الملح)، وهي عمل روائي طويل مميز في أدبنا العربي المعاصر، ألفه عبد الرحمن منيف في ست سنوات كاملة(٧). والبحث الراهن يدرس الصمت في جزئها الأول(التيه)، مع الموازنة بين الصمت في هذه الرواية ونظائره في روايات عربية معاصرة أخرى: روايتان للعراقي غائب طعمة فرمان(٨)، إضافة إلى مجموعة قصصية له، ورواية للفلسطيني غسان كنفاني(٩)، وثلاث روايات للمصري أحمد خالد توفيق(١٠)؛ بهدف ضمان التنوع، ورصد الظاهرة عند أكثر من أديب، وفي أكثر من قُطر عربي، في أكثر من فترة من فترات الأدب العربي المعاصر، ثم الموازنة بمجموعة قصصية واحدة، مع بقاء الغلبة للرواية. هذا عن حدود البحث الموضوعية، أما عن حدوده الزمانية والمكانية، فالثلث الأخير من القرن العشرين، في أربعة أقطار عربية كبيرة، هي السعودية والعراق وفلسطين ومصر.

تساؤلات البحث:

١ – أثمَّة فروق بين الصمت والسكوت والإنصات والإصغاء، ومقابلاتها: النطق والكلام والقول والحديث؟

٢ – كيف تُمكن دراسة الصمت وتحديد نطاقاته بدقة، وهو الغائب الحاضر، الخارج عن نطاق اللغة المنطوقة المكتوبة؟

٣ – ما صور الصمت وأشكاله عامة، وما الموجود منها في رواية " التيه" خاصة؟

٤ – ما الغايات الفنية من الصمت في رواية " التيه" ؟

٥ – أكانت للصمت في الرواية دلالة محورية ثابتة أم تبدلت تلك الدلالة؟ولماذا؟

٦ – ما أدوار الصمت في البناء السردي للنص الروائي موضوع الدراسة؟

٧ – ما مدى اتفاق هذه الأدوار أو اختلافها مع ما في الروايات المناظرة محل الدراسة؟

الدراسات السابقة

المؤلَّفات في التداولية بالمئات، وفي الرواية العربية بالآلاف، لكنهاعن الصمت نادرة. ومن هذا النادر:

١ – د. إبراهيم عبد الفتاح رمضان: " حين يكون الصمت بلاغة" ، بحث بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور، العدد الخامس، الجزء الحادي عشر، ٢٠٢٠م. وعُني صاحبه بالتنظير العام لأهمية الصمت ودوره في التواصل البشري، وهل يكون بليغًا، والصلة بينه وبين الحجاج، وعلاقته بلغة الجسد. لكنه لم يتطرق للصمت في الإبداع الأدبي.

٢ – د. علي عبيد: " بلاغة الصمت من خلال نماذج من الرواية العربية" ، مقال نُشِر بمنتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، في الثالث عشر من مايو عام ٢٠١٣م. وهو مقال قيم، غير أنه في صفحة واحدة لم يعدُها، وفرض هذا على كاتبه الإلماح إلى عناصر الموضوع في لفتات سريعة، وغاية في الاختصار، والاقتصار على الكلام عن الصمت في مقدمة كل رواية وخاتمتها. ومع هذا أفاد منه البحث الراهن في عدد من النقاط.

٣ – فاطمة عرفات الحلو: " الاتصال الصامت وتأثيره في الآخرين. دراسة قرآنية موضوعية"، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م. ودرست فيها صاحبتها وسائل الاتصال الصامت من خلال التفسير الموضوعي للقرآن الكريم في ثلاثة فصول، الأول: عن لغة الجسد: هيئة الجسم وحركة الرأس، وتعبيرات الوجه، وحركات

العيون والفم واليدين والقدمين، والفصل الثاني: لغة الأشياء: الملبس والزينة والسلاح والعتاد والهدية والشجرة، وغيرها، إضافة إلى خفض الصوت ورفعه والخضوع بالقول، والفصل الثالث: مستويات الاتصال الصامت: بين فرد وفرد، وفرد وجماعة، والعكس. ومحددات الصمت العَقَدِيَّة والنفسية والاجتماعية. وهي رسالة جيدة في بابهاوتقسيماتها، وإن أدخلتْ أحيانًا ما ليس من الصمت في الصمت، كما أنها اقتصرت على ما في القرآن الكريم.

٤ – محمد عبد الرحيم: " السر والسكوت والصمت في الشعر العربي" ، سلسلة المبدعون، دار الراتب الجامعية، بيروت، ط١ ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م" . لم يحلل مؤلف هذا الكتاب ظاهرة الصمت، ولا درسها دراسة علمية، ولم يعْدُ أن جمع أشعارًا وأمثالاً عربية قديمة وحديثة، في السر والسكوت والصمت، ورتبها حسب القافية لا أكثر، ولم يُحِل إلى مصادرها إلا نادرًا، فهو أشبه بمعجم مبسط، أو كتاب مختارات أدبية، جُمِعَ على عجل.

٥ – د. وليد سعيد شيمي: " بلاغة الصمت دراسة تداولية" ، بحث بمجلة كلية دار العلوم، جامعة الفيوم، العدد ٣٦، يونيو ٢٠١٥م. وهو بحث قيِّم رائد في مجاله، لكنه عام جدًّا مقارنةً بما يطمح إليه الباحث

٦ – د. محمد الباردي: " الصمت والنص المفتوح. قراءة في رواية فردوس لمحمد البساطي" ، مجلة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، العدد الخامس عشر، ٢٠٠٦م. عشرون صفحة من التحليل السردي لروايةقصيرة لمحمد البساطي، هي" فردوس" ، شُغِل فيها كاتبها بما كان قوله ممكنًا لكن البساطي لم يقله، لا بمواضع الصمت الفعلية الحاضرة في حوار الرواية.

٧ – د. محيي الدين حمدي: " مدخل إلى الصمت في النص المسرحي" ، بحث منشور في مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر – بسكرة، الجزائر، العدد الثامن، يناير ٢٠١١م. وهو بحث قصير آخر عن رواية أخرى لمحمد البساطي أيضًا، هي" صخب البحيرة" .

خطة البحث:

وهذا البحث في أربعة مباحث، تسبقها مقدمة وتليها خاتمة، ثم حواشي البحث، وقائمة بأهم المصادر والمراجع، كالآتي:

المقدمة: وقد مضى فيها الكلام عن أهمية البحث، مشكلته، وقضيته، وفروضه، ومنهجه، وحدوده، وتساؤلاته، وأهم الدراسات السابقة في بابه.

والمبحث الأول(تجريد المصطلح): وفيه وقوف عند دلالات السكوت والسكون والصمت والإنصات والإصغاء، في مقابل معاني النطق والقول والكلام والحديث، في معاجم اللغة.

والمبحث الثاني(دواعي الصمت): ويرصد الباحث فيه نيفًا وعشرين من دواعي الصمت في رواية التيه، وسائر الروايات محل البحث.

والمبحث الثالث(درجات الصمت وحدود نطاقاته): ونسب حضوره، وعلاقته بكل من السياق، والسرد، والبناء الدرامي، ولغة الجسد.

والمبحث الرابع (أدوار الصمت الفنية: البلاغية والسردية والتداولية)، والمقصود بها إسهاماته في بناء الصرح الجمالي للنص الأدبي، من ناحيتين: الخطاب(الرسالة التي يريد الكاتب إيصالها)، والنسيج أو البناء السردي

المبحث الأول

تجريد المصطلح

الصمت والسكوت في معاجمنا التراثية بمعنىً؛ إذ " أصْمتَ" : أطال السكوت، والتصميت: التسكيت والسكوت، ورجل صِمِّيت، أي: سِكِّيت. والصمتُ السكوتُ[١١]. والسين والكاف والتاء أصلٌ يدل على خلاف الكلام[١٢]. لكن السكوت أعم؛ لأنه قد يدخل في باب المجاز، وقد تقول العرب: سكت الغضب، بمعنى: سكن[١٣]؛ لأن السكوت ضربٌ من السكون، فاستُعير له، كما في قوله تعالى: (وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ)(الأعراف: ١٥٤). فإذا كان السكوت طويلاً، وبسبب مرضٍ أو غيره، فهو السَّكتةُ والسُّكات[١٤]. والسَّكْتُ: يختص بسكون النَّفَس في الغناء، أوهو شِبْه تنفس بين نغمتين من غير تنفس[١٥]. أي: أنهم ميزوا بين سكوتٍ طَبَعِيّ، وسكوت بفعل المرض، وسكوت عن كلام منغَّم مخصوص يجري على وتيرة منتظمة معينة، أعني: الغناء. ثم الإنصات أشمل من السكوت؛ من ناحية أنه سكوتٌ واستماع معًا[١٦]، والإصغاء أشمل من الإنصات؛ إذ فيه ميل بالسمع نحو المتكلم[١٧].

وعند بعض المتأخرين تفريق بين الصمت والسكوت، حددوه في ثلاثة أشياء: أولها أن السكوت تركُ التكلم مع القدرة عليه، بينما الصمت عدم الكلام بقطع النظر عن القدرة، والثاني: أن ضم الشفتين ولو لفترة قصيرة جدًا يدخل في باب السكوت، بينما لابد أن تطول مدة الامتناع عن الكلام لنسمي ضم الشفتين صمتًا، والثالث: أن السكوت إمساكٌ عن قول الحق والباطل، والصمت إمساكٌ عن قول الباطل دون الحق[١٨]

ثم إن للقوم ألفاظًا أخرى شتى يعبرون بها عن عدم الكلام، منها الإرمام، والإطراق، والسكون، والكُظُوم، كلها بمعنى السكوت. والقَرَد: سكوتٌ عن عِيٍّ[١٩]، ولما كانت الأشياءُ تتبين بضدها، وجبتْ وقفة عند أضداد ما سبق من ألفاظ. وفي مقابل

الصمت والسكوت والإنصات والإصغاء، يأتي النطق والكلام والقول والحديث. والنطق: " كل لفظ يُعبر به عما في الضمير مفردًا كان أو مركبًا فهو النطق والمنطق في التعارف. وقد يُطلَق لكل ما يُصَوِّت به على التشبيه أو التَّبَع" (٢٠)

وكما يدخل السكوت في باب المجاز، يدخل النطق فيه، فيُقَال لغير ذي اللفظ تجوزًا، كقول الشاعر: فقالت له العينان سمعًا وطاعةً. . وقال بيده: أهوى بها. وقال برأسه: أشار(٢١)، بمعنى أنه يُوصَفُ بالناطق كل ما دل على معنى، وعلى هذا قيل لحكيم: ما الناطق الصامت؟ فقال: الدلائل المخبرة والعبر الواعظة، فمن فهم من شيء معنى فهو بالإضافة إليه ناطق وإن كان صامتًا، وبالنسبة إلى من لا يفهم عنه صامت وإن كان ناطقًا(٢٢). وقد يُراد بالنطق ما يجري على الجَنَان لا ما يجري على اللسان...وقد يسمى المتصور في النفس قبل ظهوره قولاً، كقوله تعالى: (وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ)(المجادلة: ٨)(٢٣)

والمنطقيون يسمون القوة التي منها النطق نطقًا؛ ولهذا عرفوا الإنسان فقالوا إنه الحي الناطق المائت؛ فالنطق لفظ مشترك عندهم بين القوة الإنسانية التي يكون بها الكلام وبين الكلام المُبرَز بالصوت(٢٤)

ومن هذا –وغيره – يُلاحظ ربط المعاجم بين النطق والحياة؛ ففيها: أن قولهم: " ما له صامت ولا ناطق" ، الناطق الحيوان والصامت ما سواه(٢٥). والكلام يُطلق على الألفاظ المنظومة، وعلى المعاني التي تحتها مجموعة، ويقع عند النحويين أيضًا على الجزء منه: الاسم والفعل والحرف. وعند كثير من المتكلمين لا يقع إلا على الجملة المركبة المفيدة، وهو أخص من القول؛ لأن القول يقع عندهم على المفردات(٢٦). " وكل قضية تُسمى كلمة، سواء كان ذلك مقالاً أو فعالاً" (٢٧). أما الحديث، فكل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه(٢٨)، فكأنهم يطلقون على الكلام حديثًا، حين ينظرون إليه من جهة المستمع لا المتكلم. والملاحَظُ كذلك

أن المعاجم الأقدم لم تكن – غالبًا – تفرق بين السكوت والصمت والإنصات والإصغاء، ولا بين النطق والقول والكلام والحديث[٢٩]

وهكذا، لعل من الممكن أن نرتب ما يدل على خلاف الكلام، هكذا: السكوت؛ لأنه يدل على صمت قصير، وأصل دلالته" السكون" ، ومنه جاء المعنى المجازي لسكوت الغضب. ثم الصمت؛ لأنه يستغرق وقتًا أطول، ثم الإنصات، الذي هو صمت مع استماع، ثم الإصغاء الذي هو إنصات مع ميل نحو المتكلم.

وفي المقابل: النطق؛ لأنه يكون ولو بأصوات مفردة، ثم القول؛ لأنه قد يعني نطق حروف وأنصاف كلمات، ثم الكلام، الذي يكون بجمل وعبارات كاملة، ثم الحديث، الذي يعني كل ما يُستحدث من كلام.

ويمكن أن نركز المصطلح الذي يدور حوله هذا البحث بدقة في " الصمت" ، الذي مقابله" الكلام" .

المبحث الثاني

دواعي الصمت

الصمت لغة عالمية، كما أن الإيماءات والإشارات وحركات الجسد التي تصاحبه تقترب من هذا المستوى من الذيوع أيضًا. وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن للصمت دواعي لا تحصى؛ تتنوع بتنوع الحياة الإنسانية[٣٠]. وكان بعض الدارسين للتداولية أكثر تحديدًا في كلامه عن دواعي الصمت، فذكر منها خمسة وعشرين داعيًا، كالآتي:

١- صمت الرضا والقبول.

٢ - الصمت الذي مبعثه ضعف الثقة بالنفس، أو فقدانها بالكلية.

٣ - صمت الخوف.

٤ - وقد يكون هذا الخوف من قهر ذي سلطان ونفوذ.

٥ - صمت الهروب من الرقابة والمحاكمة، كما في المسكوت عنه في أمور الدين والسياسة والجنس.

٦ - الصمت تعففًا عن قول ما لا يليق، في الأمور الأسرية، والعمر، والراتب...إلخ، وهو يختلف من سياق إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى.

٧ - الامتناع المؤقت عن الكلام أمام النيابة أو في المحكمة.

٨ - الصمت كمدًا.

٩ - الصمت خجلاً.

١٠ - الصمت حيرةً.

١١ - الصمتُ دهشةً.

١٢ – الصمت انبهارًا .

١٣ – الصمت تأملاً.

١٤ – الصمت استعدادًا للكلام.

١٥ – ومن الصمت ما يكون اضطرارًا جسديًّا، كما يحدث في أثناء النوم أو التنفس.

١٦ – الصمت استراحةً من الكلام.

١٧ – الصمت رعاية لبعض القواعد والقوانين والآداب، كما في المكتبات العامة وفي أثناء الخطبة الدينية

١٨ – صمت الغرباء الذين لا يجمعهم جامع إلا مكان كالطائرة أو الحافلة

١٩ – الصمت استماعًا وطلبًا للمعرفة، أو المتعة، أو كليهما، وهو يتباين في تركيزه ووقاره بتباين ما يُقال.

٢٠ – الصمت إجلالاً للموت، وما يصاحبه من حزن وتعزية، وما يتلوه من حداد.

٢١ – الصمت صيامًا عن الكلام وفاءً لنذر، كما فعلت السيدة مريم عليها السلام.

٢٢ – صمت الجهل بما يُقال.

٢٣ – صمت الازدراء لما يُقال.

٢٤ – ومن الصمت ما يكون إشارة إلى انتهاء حوار أو كلام.

٢٥ – الصمت احتجاجًا واعتراضًا[٣١].

وأرى أنه يمكن دمج بعضها في بعض، وإلحاق بعضها ببعض؛ دفعًا للتكرار، وذلك بأن نضم رقم ٤ إلى رقم٣، ورقم٧ إلى رقم٥، ورقمي١٧، ٢٠ إلى رقم٦، ورقم١٢ إلى رقم١١، ورقم ٢٤ إلى رقم١٤. إضافة إلى حذف أرقام ١٥، ١٦، ١٨، ٢١؛

إذ هي من الصمت الاضطراري، بينما المقصود في هذا البحث الصمت البليغ the eloquent silenceالذي له وظائف دلالية جمالية أوفنية، وبهذا لا يدخل فيه الصمت المجرد الذي يخرج به صاحبه عن نطاق التواصل اللغوي، بل ذلك الصمت الاختياري، الذي يقصد صاحبه به إلى درجة مميزة من التواصل اللغوي غير اللفظي، جنبًا إلى جنب مع التواصل اللفظي، إضافة إلى تدعيم التواصل بين طرفي الخطاب بشكل عام؛ ذلك أن الصمت في نموذج رومان جاكبسون للتواصل – عام ١٩٦٠م – علاقة لغوية، ودالة مرجعية، وطريقة بديعة للتعبير عن المشاعر في إطار الوظيفة العاطفية(٣٢). والعيي – مثلاً – الذي لا ينقاد الكلام للسانه لايُعَدُّ صامتًا بالمعنى المقصود هنا.

وقد أحصى الباحث عشرين من دواعي الصمت في رواية التيه، بعضها يوافق ما ذُكر آنفًا، وبعضها جديد، كالآتي:

١ – صمت الحزن والهم المتراكم: الغالب على الاتصال غير اللفظي التعبير عن المشاعر، كالحب والكراهية والاهتمام والثقة وغيرها، في حين يعبر الاتصال اللفظي عما يرتبط بالمضامين(٣٣). " وللصمت أحيانًا لغة تفهمها القلوب التي شفَّها الحزن، وصهرها الألم" (٣٤)، والمفترض المتوقع أنه" من ضاق صدره اتسع لسانه" (٣٥)، لكن يبدو أنه – في التيه – من تراكم همه، وتضاعف حزنه لاذ بالصمت!؛ ففي بدايات الرواية" رفع متعب، لأول مرة، إلى ابنه، عينين حزينتين مليئتين بأسئلة خرساء" (٣٦). ثم إن " حالة من الحزن كانت تطغى على الجميع عند هبوط الليل، وكانت هذه الحالة تزداد وتتكاثف مع تناقص حركة البشر ثم انقطاعها، ومع ارتفاع صوت البحر وتلك الرياح التي تهب فجأة. كان الرجال يغرقون في الصمت وشعور المرارة يخيم عليهم تمامًا، خاصة وأن كثيرًا من الأسئلة التي يستطيع الإنسان الإجابة عنها في أماكن أخرى، لا تجد هنا جوابًا" (٣٧)

وكما أن لكل إنسان بصمة صوت، فإن له بصمة صمت أيضًا؛ فلصمت أم الخوش التي خاب ظنها، ولم يعد ابنها الغائب، لصمتها دائمًا أبدًا بصمة حزن الأم الملتاعة، المشوب بأملٍ – كاليأس – في رجوع ابنها: " خيم الصمت والهبوط ثم جاء الحزن، خاصة لما ملأت ولولة أم الخوش الوادي، وزاد حزنها أكثر من أية مرة سابقة" (٣٨)

وللموت صمته المخيف، المؤذن بانقضاء الأجل(٣٩)، ثم إن للأحياء في حضرته نوعًا آخر من الصمت، هو نوع من صمت الحزن الجمعي، الذي جرى عليه عرف المجتمع، لا الحزن الفردي النسبي. وعبد الرحمن منيف يصفه مرارًا وبإتقان. ومن هذا: " حين وصل سلمان الزامل واثنان آخران، وقد سمعوا لغطًا في السوق، حين وصلوا ورأوا مفضي، انحنى سلمان ووضع أذنه على صدره، ثم أمسك بيده، فلما وجده باردًا ارتجف فترك اليد تسقط، ووقف دون أن يتكلم كلمة واحدة!" (٤٠). وبعد موت الصديق: " ابن نفاع واصل حياته، لكن دخل في حالة من الصمت الخطر" (٤١)، ثم إنه – في موضع آخر من الرواية – " وبصمت قاسٍ، أُنزل آكوب إلى القبر، وسُوي القبر مع التراب" (٤٢)

٢ – صمت الخوف والتوجس والإشفاق: إذا كان الحزن ينتاب المرء على ما فات، فإن الخوف يكون مما هو آت. وقد" تبددت كلمات الغِنى والذهب كما يتبدد الدخان في الهواء، وارتفعت راية سوداء مثل سؤال كبير: " إذن . . جاء هؤلاء القوم ليبقوا؟!" " (٤٣)، " وبمقدار الفرح الذي كان يحرك صويلح ويدفعه لأن يواصلا السير بسرعة في قافلة صغيرة إلى عجرة، كانت الهواجس وحالة من الخوف تسيطر على فواز وتشل تفكيره، وتجعله يغرق في الصمت" (٤٤)

ثم إن الدوافع إلى صمت الخوف وصوره ودرجاته تتعدد وتتنوع، وأشهرها صمت الخوف من المجهول وغير المعتاد، كخوف البدو من ركوب البحر أول مرة(٤٥)، ورهبة

أهل حران العرب من زيارة الأمريكان الأولى لهم في بيوتهم[٤٦]، وتوجس ابن نفاع، الذي يتهم الأمريكان بأنهم يحاولون تكفير أهل حران[٤٧]

وتوجسه من أجهزة التسجيل التي معهم، التي يظنها صناديق تسكنها العفاريت[٤٨]، ووضحة المشفقة مما سيحدث بعد سفر أخيها، عندما هَمَّ أخوها بالسفر تساقطت دموعها في صمت" [٤٩]

والأطفال أقدر على كسر حاجز الخوف، والإقدام على المغامرة، وتجريب الجديد، من المسنين، الذين " يراقبون ويتأملون ويتساءلون ثم تزحمهم المخاوف والهواجس فينكفئون عائدين إلى السوق أو إلى مقهى أبو أسعد الحلواني" [٥٠]. ثم هناك الخوف من مواجهة من أساء المرء إليه ويخشى انتقامه[٥١]، أو لأن الخصم من ذوي القوة الغاشمة أو السلطة والسطوة: " قال الأحنف: من لم يصبر على كلمة سمع كلمات، ورُبَّ غيظ قد تجرَّعْتُه مخافةَ ما هو أشدُّ منه" [٥٢]

وخالد المشاري أمير حران الجديد " ذكروا أنه يقتل لأبسط الجرائم، وأنه لا يرحم أحدًا، حتى لو كان أخاه، وأنه يأتي إلى حران لكي يجعلها ساكنة كمقبرة، بعد أن سمع الكثيرون عما يجري فيها من تعديات وأخطاء وفوضى" [٥٣]

والصمت خوفًا من استغلال المعلومات عنه ضد المتكلم. وكان المستورد العجلي يقول: " إذا أفضيتُ بسري إلى صديقي فأفشاه لم ألمه؛ لأني كنت أولى بحفظه. وكان يقول: لا تُفش إلى أحد سرًّا. وإن كان لك مخلصًا إلا على جهة المشاورة. وكان يقول: كن أحرص على حفظ السر من صاحبك منك على حقن دمك" [٥٤]. ثم الصمت خوفًا من تأويل ما يمكن أن ننطق به على غير ما نقصد أو نريد[٥٥]

٣ – صمت الفرح والنشوة: وهو المعبر عن حالة شعورية إيجابية عكس حالة الحزن الآنفة. بُشِّر متعب الهذال بولد ذكر، بشره به ابنه و" سارا متجهين إلى البيت

في الظهرة. سارا بصمت، لكن توهجًا داخليًّا أقرب إلى الصخب كان يدفع متعب الهذال. بدت له الظهرة بعيدة أكثر من مرات سابقة" (٥٦)

والملاحظ أن مساحات صمت الفرح والنشوة أقل كثيرًا جدًّا من تلك المعبرة عن الحزن، حتى ليمكن – بسهولة – تصنيف الجو المسيطر على رواية التيه بالحزن والشجن. وهل في" التيه" إلا الحزن والشجن؟!

٤ – صمت الستر: وهو صمت يمليه المجتمع على أبنائه كالصمت في حضرة الموت سواء بسواء، " وإذا كانت هناك أشياء يمكن أن تُقال وتُفهم، فإن أشياء أخرى لا يمكن أن تُقال، حتى لو رآها الآخرون أو عرفوا بها" (٥٧). ولعل من المتفق عليه أن رسالة الصمت قد تصل بكفاءة عالية أو متدنية، أو لا تصل؛ لأسباب على رأسها مراد الباث ودوافعه وتوقعات المتلقي، وربما يعمد الباث إلى الغموض أو الكتمان بصمته، أو أن يوصل رسالة مشوشة. وهذا كله في عمق " التداولية"

٥ – صمت الدهشة: وأحيانًا، تعقد الدهشة الألسنة، " حتى الصبية والأطفال الصغار الذين كانوا كثيري الحركة ولايتوقفون عن التعليق والضحك بصوت عالٍ، بدوا في لحظات معينة مأخوذين تمامًا بما يشاهدون فصمتوا. والرجال الذين داروا نصف دورة، والذين تحركوا قليلاً، وأخذوا مواقع وأمكنة جديدة لكي يتابعوا هذا الموكب في رحلته الجديدة إلى داخل حران الأميركان، كانوا مأخوذين أكثر من الصبية والأطفال. صحيح أنهم كانوا أميل إلى الصمت ولم تصدر عنهم تعليقات كثيرة، إلا أنهم شعروا بنوع من الدوار" (٥٨)

وقد يعبر الصمت عن درجة أشد من الدهشة، هي الصدمة والذهول(٥٩): " كان فواز يتابع هذا المشهد صامتًا مذهولاً، أما رضية التي دخلت وخرجت أكثر من مرة، وبدت شديدة الانفعال، مرتبكة، فقد أدركت بحس الأنثى أن شيئًا خطيرًا يجري في تلك

اللحظات، وأن الأمر الذي انتظرته سنين طويلة، وحلمت به أكثر مما حلمت بأي شيء آخر، قد تحقق دون كلمة" (٦٠)

٦ – صمت الضيق: " أما ابن الراشد الذي حاول كثيرًا أن يبدو طبيعيًّا، بالابتسام والحديث، فما لبث أن تراجع شيئًا فشيئًا، فمال إلى الصمت أو إلى أحاديث جانبية هامشية مع الذين حوله، وكان واضح الضيق" (٦١)

٧ – صمت التردد أو الحيرة: وتدل على هذا الترددعادة فترات صمت قصيرة(٦٢)، ومنه فيما بين أيدينا: " وحين ذكر العجوز أطرق وصمت تمامًا، وكأنه لا يريد أن يتذكر أو أن يقول كلمة واحدة. بدا حزينًا ومقتولاً، حتى لكأنه شخص آخر" (٦٣)

٨ – صمت الترقب: " وفي جو من الصمت الذي خيم، وقد رافقه الترقب والانتباه، نهض حسن رضائي بثقة، أخرج من جيبه سكينًا صغيرة وفتح الكيس، وطلب من أحد رجاله أن يخرج ما بداخله. . . أمام الأمير، نظر إليه باهتمام، لكنه ظل صامتًا. إنه يرى لأول مرة شيئًا مثل هذا" (٦٤)

والعينان تسهمان بقسط وافر في رسم الصورة وأداء معنى الترقب:

" – ابن الراشد لم يرسلني. . . جيت وحدي

وحين يظلون صامتين وعيونهم معلقة بفمه، يضيف:

– لابد أنكم سمعتم ما صار بوادي العيون" (٦٥)

٩ – صمت التعب والإرهاق: يرتبط الكلام ببذل جهد بأعضاء جهاز النطق وعدد من عضلات الجسد، وقد يُرَد الصمت إلى ظاهرة لغوية شهيرة، يشير إليها مفهوم الاقتصاد في الكلام، المرتبط ببذل جهد أقل، وأن نحذف كل ما ليس ضروريًا من الخطاب(٦٦)، والعمال" لم يجدوا في أنفسهم القوة، في هذا الوقت المتأخر، لإعداد

الطعام، فاكتفوا بالشاي؛ إذ جلسوا في الفسحة بين الخيام وأخذوا يرشفون من الأقداح وهم صامتون" (٦٧)

١٠ – الصمت عجزًا أوقهرًا أوإحباطًا: " لكن حين هجم الحزن وسيطر على الحواس، فقد أصبح العجز يربط الألسنة، والألم يهد الأجساد، وانتشرت حالة من المرارة مع جفاف الحلوق وتوتر الأعضاء، فساد الصمت" (٦٨)

١١ – صمت الإصغاء والإنصات: طلبًا للفائدة ورغبة في التعلم، كما في حالة فواز، الذي حرص طوال رحلة العودة من مَضَافَة ابن الراشد، على أن يبقى صامتًا، ويستمع إلى كلمات أبيه الغريبة(٦٩)، أواحترامًا إذا تكلم الكبار؛ إذ الكلام بحضرة الأكبر سنًّا، والأكثر علمًا أوحكمة إساءة أدب، هكذا علم متعب الهذال ابنه منذ نعومة أظافره(٧٠)، أو طلبًا للاستمتاع بالإصغاء لغناء شجي، يثير كوامن الشجن: " أما حين بدأ صويلح، ولم يكن أحد قد توقع ذلك أو قدَّره، فقدخيم الصمت وامتلأ بتلك العذوبة الجارحة، ولم تتردد بعض النسوة من الاقتراب. أما الأطفال الذين كانوا كثيري الحركة شديدي الصخب، وكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر، فقد جلسوا في الوسط، وانتابتهم حالة من الدهشة سيطرت عليهم تمامًا" (٧١)

١٢ – الصمت إشارة إلى فهم المراد بدقة، تغني عن مزيد كلام: " ودون كلمات هز ابن الراشد رأسه عدة مرات، مع ابتسامة صغيرة واثقة، وبعد لحظات ضرب بكفه المفتوح على صدره مرتين، وقال: ما يصير إلا اللي تريده. . يا طويل العمر. " (٧٢)

١٣ – صمت الجهل بما يقال أو ما ينبغي عمله(الصمت خشية الخطأ): كلمة التواصل تدل – في رأي لندبرج Lendberg– على التفاعل بواسطة العلاقات والرموز، وتلك الرموز قد تكون حركات أو صورًا أو لغة أو أي شيء آخر يقوم بدور المنبه للسلوك. ولكي يحقق ذلك التواصل أغراضه التفاعلية بكفاءة، لابد من أن يقوم على قاعدة من الفهم المشترك لمضامين الرموز المستعملة فيه(٧٣). وقديمًا قالوا: "

إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب" ، وقالوا: " من سكتَ فسلِم كان كمن قال فغَنِم" (٧٤)، وقالوا كذلك: " من أطلق لسانه أهدر دمه" (٧٥)

والصمت يستر جهل الجاهل، وعي العيي، ورجال شرطة حران حين لا يفهمون أوامر قائدهم يصمتون: " والرجال الذين يستمعون لا يعرفون ماذا يجب أن يفعلوا أو ما هو الشيء المطلوب منهم. يتطلعون إلى وجه جوهر، وبسرية يتبادلون فيما بينهم نظرات متسائلة" (٧٦)، " وهؤلاء الرجال يرون ذلك كله ويسمعون ويسألون ويراقبون، لكنهم لا يعرفون كيف يفسرون ما يجري حولهم، ولا يعرفون كيف ستكون الحياة في الأيام القادمة؛ لذلك كانوا يغرقون في الهموم والصمت" (٧٧)، وفواز لا يفهم مما حوله إلا قليلاً فيلوذ بالصمت(٧٨)

١٤ – صمت الإقرار والموافقة: والإقرار السكوتي من أنواع الحديث النبوي، وهو علامة الرضا، و" السكوت أخو الرضا" من أمثال المولَّدين(٧٩). فلا داعي – عندئذ – للكلام للإبانة عن الموافقة بكلام: " وهز نائب الأمير رأسه، وفُهمت على أنها موافقة وأنه سيبذل جهده" (٨٠)، " وهز الكثيرون الذين سمعوا الكلام رءوسهم بنوع من الموافقة، لكنهم لم يعلقوا" (٨١)

١٥ – الصمت اعتراضًا: وكما يكون الصمتُ قَبولاً، قد يكون رفضًا واعتراضًا، وينجم عن تمرد صاحبه على الخطاب اللغوي الجاهز، الذي لم يعد يروقه هو ولا مخاطبه(٨٢)، بل إن بعض المتخصصين في نظرية الخطاب يذكرون سببين رئيسين للصمت في الخطاب الأدبي، هما العجز بسبب الحُبسة وما أشبهها، والرفض تمردًا على الخطاب الاجتماعي أو الكلام أو صاحبه(٨٣)، " وحين ينظر إليه المعاون بطرف عينيه يدرك راجي أن معنى هذه النظرة عدم الثقة أو عدم الموافقة، فينفعل، ويهدر صوته: لا تحول عينيك. . . اسأله هو" (٨٤)؛ لأن المتوقع من المستمع الموافق على أن يواصل المتكلم كلامه، أن يعرب عن تلك الموافقة بإيماءات من رأسه أو ابتسامات، أو بعض تعبيرات الوجه المعتادة، مع أداءات لفظية جرى العرف عليها،

وتكون قصيرة جدًّا، من قبيل: آه آه، نعم، مممم. . . إلى غير ذلك مما انتبه له التداوليون، وسموه" قنوات الإرجاع" . أما الصمت مع غيابها جميعًا، فيوحي بالاعتراض على ما يُقال(٨٥)

١٦ – الصمت مكرًا ودهاءً: والأجانب الدخلاء " شيخهم يعرف العربية، لكنه لا يريد أن يتكلم بها. أنا متأكد. لاحظته، كان مثل الصقر يراقب ويتنصت. سألته إن كان يعرف العربي أم لا، قال: " شوية. . شوية" ابن الملعونة، يعرف أحسن من الجميع، لكنه خبيث، وحين يريد شيئًا يتكلم بلغته" (٨٦)

١٧ – الصمت لغياب الروابط المشتركة(صمت الغربة، أوالتباعد، أو العزلة، أوالصمت الحاجز): وقد يكون الصمت ملاذًا يعتصم به من يفتقد إلى التناغم، أويشعر بالبعد وانعدام الألفة، أو بالانزعاج، أو من رأى البيئة المحيطة غير مواتية للكلام لسبب من الأسباب(٨٧). وفي مواضع عدة من رواية التيه" الصمت يقف قويًّا قاسيًا بين الاثنين" (٨٨)، " ويومًا بعد آخر يغرق عبده في العشق والعذاب، ويغرق في الصمت والعزلة أكثر" (٨٩).

والسويد أمير حران، لم يكن يحب السلطة، ولا يحب حران، ولا يحب أن يزعجه أحد" إذا جاء أهل حران للسلام عليه لا يُسَر برؤيتهم، ويظل أغلب الأحيان صامتًا، كان يعتبرهم خصومه، وإلا لم جاء إلى هذا المكان" الذي لا يصله حتى الطير" ؟ وأهل حران الذين لا يجدون شيئًا يقولونه للأمير، وليست لهم مطالب أو شكاوى، ما إن يشربوا القهوة ويبتسموا مرتين أو ثلاث مرات، ويفركوا أيديهم، حتى يستأذنوا، ويأذن لهم الأمير بسرعة، ودون تردد" (٩٠)

وقد لاحظ جاردنر أن أبناء قبيلة البوليا في جنوب الهند لا يتحدثون كثيرًا ؛ لأنهم غالبًا ما لا يجدون ما يتحدثون عنه، وذهب إلى أن هذا نتاج أنماط السلوك الاجتماعي الشائعة، أي أنهم تربوا على هذا(٩١)

١٨ – صمت الفصام والانفصال التام عن الواقع: كما كانت حال هاجم بعدما مات صديقه، " وينظر الرجال إلى هاجم، إنهم لا يعرفونه لفرط ما تغير، حتى الذين مدوا أيديهم لكي يصافحوه، ورأوه يتطلع إليهم ولا يراهم. امسكوا باليد دون أن يمدها. هزوها، سألوا: " عساك طيب، عساك بخير يا هاجم؟" ولم تتغير نظراته، لم يقل كلمة، حتى شفتاه لم تتحركا. شعر الرجال بالحزن يسحق عظامهم، وشعروا أنهم غير قادرين على أن يواصلوا النظر إلى وجهه، خاصة العينين. وزاد حزنهم أنهم تذكروا كيف كان الحوت الصغير" [٩٢]

١٩ – صمت العقاب: وقد يكون الصمت عقابًا، كما في قصة تخلف كعب بن مالك – رضي الله عنه – عن غزوة تبوك[٩٣]. و" كان ابن الراشد يتكلم وحده، يتكلم لنفسه. بدت كلماته جافة لا تعني شيئًا أو أحدًا، وحين رأى نظرات الرجال الباردة، وأحسَّ بالصمت يحاصره، سأل: من كان مع المرحوم؟" [٩٤]

٢٠ – الصمت المأمول(حين يكون الصمت مطلبًا): " وقد صاح حماد الزين أكثر من مرة على الكلاب والصبية طالبًا السكوت" لأن الناس تريد أن تنام!" ، ولكن أحدًا لم يسمع ولم يستجب" [٩٥]

ثم إن الباحث رصد ثلاثة عشر داعيًا أخرى للصمت ليست عند عبد الرحمن منيف، كالآتي:

أولاً – عند غائب طعمة فرمان

١– صمت التوتر[٩٦]

٢ – الصمت لغياب الدوافع والدواعي للكلام[٩٧]

٣ – الصمت ندمًا[٩٨]

٤ – الصمت في أثناء التفكير العميق أو في أشياء عدة، أو أحلام اليقظة[٩٩] ٥ – الصمت قطعًا لحبل أفكار مزعجة[١٠٠]

٦ – صمت ما قبل المواجهة(صمت التحدي)[١٠١]

٧ – صمت اللامبالاة[١٠٢]

٨ – الصمت خير من أجوبة متضاربة[١٠٣]

٩ – الصمت إحراجًا أو ارتباكًا أو حياءً[١٠٤]

١٠ – الصمت احتقارًا للمتكلم[١٠٥]

ثانيًا– عند غسان كنفاني

١١ – صمت الصباح الجميل المشعر بالسكينة والصفاء[١٠٦]

١٢ – سكون الصحراء على الحدود العراقية الكويتية أصلٌ يمزقه هدير محرك السيارة[١٠٧]

ثالثًا– عند أحمد خالد. . صمت الرجاء[١٠٨]

ويتضح مما سبق أن مواضع الصمت ودواعيه عند عبد الرحمن منيف أكثر وأشد تنوعًا منها عند الآخرين

المبحث الثالث

درجات الصمت وحدود نطاقاته

وللصمت صور، وله درجات؛ فربما كان صمتًا كليًّا أو جزئيًّا، وربما كان الأصل وقد يكون طارئًا، وقد يقطِّع الصمتُ الكلام وقد يحدث العكس. وبالنظر إلى طرفي الحوار اللغوي يمكن الكلام عن صمت المتكلم وعن صمت المستمع، وعن الصمت بالتناوب، وعن الصمت المتبادل(١٠٩). والواقع أنه ليس هناك صمت مطلق، بمعنى الغياب الكلي للغة؛ فإنما يفكر الإنسان –ولابد – باللغة، لكنه قد لا يتم مراحل إنتاجها، ويمتنع عن إنجاز المرحلة النهائية، فلا ينطق بما فكر فيه. والمنتج النهائي هو الذي يعنينا في هذا البحث.

ومن الناحية الفيزيائية: الصمت قسيم الكلام وضده، وبضدها تتبين الأشياء، فهناك حديث مسموع يسمى كلامًا، وآخر غير مسموع يسمى صمتًا، وهو من اللغة أيضًا، لكنه لغة بالقوة لا بالفعل، وليس أحدهما بأقل " لغوية" من الآخر – إن جاز هذا التعبير – والذي يحدد استعمال أحدهما دون الآخر إنما هو " الموقف" و" السياق" .

ومن الصمت ما كان تامًّا، ومنه الجزئي، ومنه قسري، الذي يجيء على هيئة خَرَس، ومنه اختياري. وهو من الناحية النفسية أنواع كذلك. ثم إن الباحث يرى في الإدغام، وفي الإيجاز بنوعيه، والحذف بصوره المعروفة في البلاغة والنحو، يرى في هذا درجات من الصمت أيضًا. ومن الصمت أيضًا الكف عن درجة من درجات الأداء الصوتي، كما في النهي عن الخضوع بالقول، وعن سجع الكهان، وعن خطبة المعتدة بلفظ صريح، وعن دعاء النبي –صلى الله عليه وسلم – كما يدعو بعضنا بعضًا أو أن نجهر له بالقول. ويُدخل في نطاق الصمت كذلك الرمز والتعريض والكناية والتورية وأشباهها من صور الغموض الفني المتعمد، التي يراها الباحث درجات من

الصمت. لكن المقام في البحث الراهن لا يتسع لبسط القول فيها؛ لذا سيقتصر الباحث على الصورة الظاهرة الشائعة للصمت، التي يغيب فيها الكلام، فلا يقطع الصمت شيء، أو تقطعه أصوات لا تصل إلى درجة الكلمات التامة.

وقد ذهبت جماعة مدرسة كنستانس – رومان إنجردن وولفجانج إيزر، وغيرهما – إلى أن من أهم وظائف الصمت أنه شكل جمالي، يستهدف مخاطبة المتلقي قصد إشراكه؛ لأن سمتي الخواء والامتلاء تمثلان جانبين من إستراتيجية الهدف منها استدعاء القارئ(١١٠)

وقد يلوذ أحد طرفي الاتصال بالصمت بينما الآخر يقوم بدوره في عملية الاتصال تلك عبر اللغة المنطوقة. وقد يتم الاتصال بأن يتبادلا الأدوار، فيصمت أحدهما ويتكلم الآخر ثم العكس. ومن هذا في موضوع البحث الراهن، أننا نجدجانبًا كاملاً من الحوار الآتي دون كلمة واحدة!

" – أسطه. . . الشغل خلاص. شغل يوك.

هز آكوب رأسه موافقًا ولم يتكلم. سأله راجي:

ها. . أسطه، رأيك نظل بهذا الشكل؟

حرك آكوب كتفيه ويديه بطريقة يائسة. قال راجي:

– اسمع. . قبل كم يوم بعث إلي رضائي بواحد من جماعته.

فتح آكوب عينيه باهتمام وهز رأسه طالبًا من راجي أن يتابع، تابع:

– باختصار، تبيعنا السيارة وتشتغل عندنا سائقًا" (١١١)

وقد يشارك أحد الطرفين بكلمة واحدة في كل مرة حين يحين دوره في الكلام(١١٢)

يقابلنا أيضًا صمتٌ من الطرفين أحيانًا: صمت صاحب الخطاب تشويقًا، وصمت المتلقي انبهارًا وترقبًا:

" وبعد أن تأكد حسن رضائي بنفسه أن كل شيء وضع في مكانه، فرك يديه وابتسم ابتسامة واسعة، وجلس قرب الصندوق، وقبل أن يبدأ المرحلة الجديدة من عمله، نظر إلى الأمير ونظر إلى الآخرين أيضًا. كانوا صامتين وقد ظهرت على وجوههم علامات الخوف والتساؤل معًا. تنحنح وقال:

– هذه الهدية التي حملتها إليك من مكان بعيد، يا صاحب السمو، سوف تنقل إليه العالم، وسوف تنقلك إلى العالم، حتى أبعد نقطة. . . وأنت في مكانك.

انفتحت عيون الأمير دهشة واهتز رأسه اهتزازًا موصولاً دلالة أنه فهم واستوعب تمامًا ما قاله حسن رضائي. وظل صامتًا مترقبًا الخطوة التالية" (١١٣)

و" أضاء شيء أخضر وسط الصندوق، فتبادل الأمير نظرات سريعة مع الآخرين. كانت نظرات تساؤل وخوف، لكنه حاول أن يتماسك. أما في اللحظة التالية، وعندما حرك حسن رضائي بعض الأجزاء البارزة من الصندوق، ودوت أصوات قوية منبعثة من حيث لا يدري أحد، فقد أجفل الحضور جميعًا" (١١٤)

وهكذا نرى الصمت جزءًا أصيلاً من الحوار ومن البناء الدرامي، كما نراه موظفًا توظيفًا سرديًا دقيقًا، في تحريك الأحداث إلى الوجهة التي يتغياها المؤلف

وفي الرواية أمثلة عدة، تبرهن على أن الصمت لا يعني – في كثير من المواقف – نهاية الحدث الاتصالي، بل ربما كان سببًا ودافعًا لاستمراره(١١٥).

وهاهو ذا" الأمير الذي كان شديد السعادة، وقد تبادل نظرات طويلة مع حسن رضائي، وغمزات أيضًا مشيرًا إلى التأثير القوي الذي حصل، تمنى في تلك اللحظة لو أنه دعا أهل حران جميعًا" (١١٦)

وليست لحضور الصمت في النصوص المتنوعة صورة واحدة، ولا هو بالدرجة ذاتها ولا التواتر نفسه؛ لتعدد الاتجاهات والأبعاد الفكرية في الروايات(١١٧)

وعندما حاول الباحث رصد هذا بطريقة حسابية، انتهى إلى الآتي:

١ – عبد الرحمن منيف، وروايةَ(التيه) = ٢٢١ موضعًا للصمت(٢٠٧+١٤ تكرارًا)، بما يعني ٥٩٨ صفحة على ٢٢١موضعًا للصمت = موضع في كل ٢. ٧ صفحة في المتوسط.

٢ – غسان كنفاني، وروايته" رجال في الشمس"، نُشرت للمرة الأولى عام ١٩٦٣م = ٢٢ موضعًا للصمت في ١٠٩ صفحة = صمت كل ٤,٩٥ صفحات

٣ – أحمد خالد توفيق: آخر أيام الرايخ: ١٥٦ صفحة، وأربعة عشر موضعًا للصمت= ما متوسطه صمت كل ١١. ١٤ صفحة

قشعريرة: ١٥٧ صفحة، وسبعة مواضع للصمت فقط! = ما متوسطه صمت كل ٢٢. ٤٢ صفحة

أسطورة الرقم المشئوم: ١٥٨ صفحة، وثلاثة مواضع للصمت فقط! = ما متوسطه صمت كل ٥٢. ٦٦ صفحة.

وانتهى إلى أن الصمت أكثر في الروايات الأقدم، ويقل باضطراد وبوضوح شديد فيما بعد، حتى يغدو نادرًا في روايات أحمد خالد توفيق بشكل عام، وروايته الأخيرة خاصة؛ ربما لأن رواياته أقصر، أو تغلب عليها الحركة لأنها تخاطب الشباب؛ ولهذا يغلب عليها الحوار لا السرد؛ أو لأن السرعة سمة العصر، بحيث لم يعد هناك وقت للصمت ومحطاته!

ولعل ثمة سببًا إضافيًّا لهذا مرده إلى طبيعة سلسلة(فانتازيا)هي التي أفسحت مجالاً أكبر للصمت؛ فالرابط بين حلقاتها هوشخصية بطلتها عبير عبد الرحمن، الفتاة المصرية العادية جدًّا، التي لا تملك أية موهبة أو قدرات مميزة، وهي الفارَّة دائمًا من إحباطات الواقع إلى رحابة الأحلام، وإلى عوالم خيالية من صنع عقلها الذي غذته

قراءات كثيرة. وهي في كل رواية من روايات سلسلة فانتازيا تغدو جزءًا متفاعلاً من قصة، أو حدث تاريخي قرأتْ عنه من قبل(١١٨).

وهل هناك علاقة بين الصمت ونمط الحكي، من سرد، ووصف، وحوار؟وما الصلة بينه وسرعة الأحداث في الرواية؟أو– بعبارة أخرى – ما الصلة بين الصمت والزمن السردي؟ لاحظ الباحث أن الصمت – في الروايات محل البحث الراهن – جزء مهم من الحوار، أكثر بكثير مما هو جزء من السرد أو الوصف. ومعلومٌ أن الحوار يسرع وتيرة الأحداث، ويدفعها إلى الأمام، نحو العقدة فالحل، بينما السرد والوصف يصنعان العكس. وقد شغلت السرديون الغربيون الصلة بين الصمت والزمن، من باب كونه إسراعًا مفرطًا للمدة الزمنية(١١٩)

وما من سبيل للحكم على المسكوت عنه إلا في ضوء المذكور، وما من وسيلة لقياس بلاغة الصمت إلا بما نحاوله عبر أدوات دراسة قياس بلاغة المنطوق. لابد أولاً من تقدير المسكوت عنه وتحديد حجمه قبل الحكم على قيمته الفنية أو التداولية، وفهم دوره في بناء النص الأدبي، ويكون هذا من خلال القرائن المحتفَّة الموجهة للفهم. لكن، كيف يمكننا تحديد بداية الصمت ونهايته في كل مرة يقابلنا فيها في النص الأدبي؟ وكيف نحدد مدته أو مداه؟أهذه المدة زمنية أم يمكن تحديدها بعدد الكلمات أو الجمل المقدرة لملء الفراغ الذي صنعه الصمت؛ من منطلق أن " الصمت في النص السردي هو قول غائب يلفت النظر بغيابه" ؟(١٢٠)

أم بعدد الأحداث التي كان يمكن أن تقع في هذه المدة؟ وما القرائن اللفظية والسياقية التي يمكن أن تعيننا على هذا؟(الألفاظ الدالة على الصمت، مثل: صَمَتَ – لم يُجب. . . . إلخ). وماذا لو تداخل صمتان أو تقاطعا عندما تتعدد أطراف الحوار؟

تبدو الإجابة عن هذه الأسئلة سهلة من الناحية النظرية، لكنها ليست كذلك عمليًا، ولا يسع الباحث إلا الاجتهاد والمقاربة في الإجابة عنها، منطلقًا من أهمية السياق ودوره في هذا.

الحال/المقام/السياق

الصمت مظهر من مظاهر انفتاح النص، بما يمثله من فراغ يتعمد المؤلف تركه، وكأنه يدعو القارئ إلى ملئه بتأويل –أو تأويلات – تستند إلى إشارات ومحددات سياقية(١٢١)

وعلى القارئ أو المتلقي أو الشريك الثاني في عملية الاتصال اللغوي أن يبادر إلى ملء الفراغات والفجوات الدلالية التي يصنعها الطرف الأول بصمته. كما أن عليه أن يترجم المغزى من الصمت، والدافع إليه. ثلاثة أشياء هي إذن: الدافع إلى الصمت، والمعنى الناقص، والمغزى.

كما أن هناك مستويات لبلاغة الناطق والمنطوق به، هناك مستويات للساكت والمسكوت عنه! وإذا كان الكلام المنطوق حمَّال أوجه، فالصمت أيضًا قد يكون حمَّالاً لأوجه من التأويل، تضيق دائرتها أو تتسع؛ حسب مقتضيات السياق والموقف، وحسب قدرة الشريك في عملية الاتصال على التأويل. و" السياق" contextهو المحيط الملموس الذي تستعمل فيه الكلمات(١٢٢). وما التداولية – في أحد تعريفاتها المختصرة – إلا" دراسة استعمال اللغة في سياق معين" (١٢٣)، أو " دراسة المعنى السياقي" الذي يرمي إليه المتكلم، لا المعنى المجرد لكلمات اللغة وعباراتها(١٢٤)، أي أنها تُعنى عناية كبيرة بأطراف كل موقف تواصلي، والسياق الذي يتم فيه، بل إنها منذ أوستين جزء من علم أعم، هو دراسة التعامل اللغوي من حيث هو جزء من التواصل الاجتماعي، القائم على التأثير والتأثر؛ من منطلق أن النص ليس بنية مغلقة، ولا هو بمعزل عما يحيط به(١٢٥)

والاتصال عملية مركبة، تعتمد – مع توفر عناصر ضرورية للنجاح – على وسائل أشهرها اللغة، في نقل معلومات وخبرات إلى الآخرين، وتبتغي إشراك المتلقي/المرسل إليه فيما يريده المتكلم/المرسِل، وتلقي إجابة منه أو التأثير فيه بأن يتبنى فكرة ما أو شعورًا معينًا، إلى غير ذلك من غايات الاتصال المتنوعة(١٢٦). و" الخطاب" عند التداوليين: كل قول يفترض متكلمًا ومخاطَبًا مع قصد الأول التأثير في الثاني بطريقةٍ ما(١٢٧)

والقول يُئوَّلُ اعتمادًا على سياق ما، بحيث يكونان – أعني القول والسياق – مقدمات لعملية التأويل التداولية، التي هي عملية استدلالية قواعدها قواعد المنطق الكلاسيكي(١٢٨)، كما أن " تحليل الخطاب" discourse analysis يعني دراسة استعمال اللغة مع الإشارة إلى العوامل الاجتماعية والنفسية المؤثرة في التواصل(١٢٩). ومن قديمٍ قال الجاحظ إن جميع أصناف الدلالات على المعاني – من لفظ وغير لفظ – خمسة أشياء: اللفظ، والإشارة، والعَقْد، والخط، " والحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تُقَصِّرُ عن تلك الدلالات" (١٣٠)، والأمر نفسه يراه الباحث ممكنًا مع الصمت في هذا البحث، لاسيما والتداولية تُعنى عناية خاصة بالمعنى الخفي invisible meaning، حتى قال قائل التداوليين إنها : " دراسة كيفية إيصال أكثر مما يُقَال" (١٣١)

وهذا معناه – ضمنًا – الاهتمام بما عُبِّرَ عنه، لكنه لم يُقَل عبر اللغة المنطوقة، كالاهتمام بما قيل بها. في ضوء" المقام" ، الذي هو: مجموعة من الظروف، التي يتفاعل الناس خلالها، عبر طريقة متعارف عليها للوصول إلى ناتج معين(١٣٢). ويُعين على هذا أن أبناء المجتمع اللغوي الواحد، لهم خبرات أساسية مشتركة عن العالم، وعُرف غير لغوي واحد non – linguistic nowledge(١٣٣)

وقد يكون الصمت نتيجة خلل في عملية التواصل، ناتج عن غياب ما يُفْتَرَض أن يعرفه السامع من معلومات مسبقة، وهو ما يُعَبَّر عنه بالافتراض المسبَق

presupposition، والاستلزام entailment. والفرق بينهما أن الافتراض المسبق موجود في دخيلة نفس المتكلم لا في الكلام، أما الاستلزام فشيء ينبع منطقيًا من كلامٍ قيل من قبل، أي أنه في الكلام لا نفس المتكلم(١٣٤)

وغياب هذا أو ذاك، يخل بعملية التواصل عبر الكلام المنطوق، ويقود غالبًا إلى الصمت.

وكثيرًا ما لا يقتصر الموقف التواصلي على طرفيه – كما في حالة المكالمات الهاتفية –، ويشارك مستمعون آخرون على الطرفين، وتقوم مشاركاتهم على مقتطفات تلتقطها أسماعهم من كلمات الطرفين، ثم يتولون هم سدَّ فجوات الصمت التي بينها. هذا الصمت ليس صمتًا في ذاته، وإنما المقام هو الذي فرض حجب أجزاء من الرسالة الكلامية المنطوقة، وأن تحل محلها نطاقات من الصمت الخاص، بالنسبة إلى بعض أطراف الاتصال دون بعض. فهو صمت في حضور الكلام المنطوق، وبالتوازي معه والتزامن. وهو غير ذلك الذي يحل محل المنطوق بإزاحته أو بملء الفراغ الناتج عن غيابه(١٣٥)

ومن أهم معينات المقدم على ملء فراغات الدلالة

لغة الجسد المواكبة للصمت

ربما نقول بالصمت والإيماءات والإشارات والنظرات أكثر مما نقول بالكلام ذاته(١٣٦). والإجابة بالصمت مع حركات الجسد أخصر وأبلغ – وأسلم عاقبةً – من الإجابة اللفظية(١٣٧)، وكثيرًا ما يكون الصمت في الرواية رسالة ذات طابع إشاري، ويقول أكثر مما يقول الكلام. لكن لابد من ضوابط لفهم الصمت السردي البليغ وتحليله نقديًا، على رأسها السياق، والمصاحبات من الإيماءات ولغة الجسد، والكلام السابق أو اللاحق أو كليهما. حتى إن بعض الباحثين يعرف الاتصال الصامت قائلاً

إنه كل ما تحدثه لغة الجسد أو الأشياء أو الحال من تغييرات في السلوك أو المشاعر أو المعارف(١٣٨)

ومن المشهور أن ثمة وحدات ثلاث أساسية، تسهم في الاتصال غير اللفظي، هي أولاً: عناصر البيئة المحيطة بطرفي الاتصال، كقطع الأثاث، وعناصر الإضاءة، والمسافات وأبعاد المكان، وثانيًا: الصفات الجسدية للمشارك في الاتصال، وملابسه، وأدواته الشخصية، وثالثًا: السلوكيات المتنوعة التي تصدر عن ذلك المتصل، وإيماءات جسده، ونبرات صوته(١٣٩)

وفي رواية التيه عبر المؤلف سيميائيًّا عن هذا الانقطاع للتواصل بالكراسي التي تترك فارغة عمدًا أو لأن هذا هو الواقع في النص الآتي المعبر عن غياب القاعدة المشتركة للتفاهم حول شيء معين/لا شيء مشترك بين العامل إبراهيم ولجنة التقييم الأمريكية: " دائرة غير كاملة، وكانت مقاعد عديدة فارغة. لم يجد شيئًا يقوله لهم، كان يريد أن يسلّم، أن يقول شيئًا، لكنه وجد نفسه مرتبكًا، حرك يده بتحية ولم يتكلم، نظروا إليه من رأسه حتى قدميه وهو يتقدم نحوهم. ابتسم له أحد اللذين يتكلمان العربية وطلب منه الجلوس، وأشار إلى مقعد. جلس، وجلس نعيم قريبًا منهم، وإن ترك كرسيًا أقرب إليهم فارغًا" (١٤٠)

وهي المسافة نفسها التي صنعها تراجع مجلي الحذر، وهو يهم بخديعة الأمريكي ميدلتون، وكأننا أمام تصوير مسرحي للحدث: " حين وضع مجلي الصندوق بين يدي مدلتون وتراجع خطوتين إلى الخلف، وكان السكون شاملاً قويًّا، فقد بدا أن هذا البدوي الضامر، والذي لا تعرف الابتسامة طريقًا إلى وجهه، لابد أن يدبر أمرًا خطيرًا، وقد زاد في إحساسه ابتعاد مجلي الحذر المخادع" (١٤١)

١ – هزات الرأس والنظرات غالبًا ما تصاحب الصمت عند عبد الرحمن منيف:

ومعروف أن حركات الرأس وسيلة فعالة للاتصال والتفاعل الاجتماعي بين البشر؛ إذ تنقل معاني كالحياء والذل والاستكبار، وغيرها [١٤٢]. أما العينان ونظراتهما فلعلهما الأصل والأساس في الاتصال الصامت[١٤٣]، ولا غرو؛ فكتب الأدب تزخر بحديث القدماء والمحدثين عن" لغة العينين" !

وعبد الرحمن منيف غالبًا ما يترجم لقارئ روايته ما تقوله العينان أوهزات الرأس أولاً بأول، غير تارك هذه المهمة الخطيرة لاحتمالات التأويل، فيقول مثلاً: " فقد حرك رأسه دلالة النفي، دون أن يتكلم، لكن قالت عيناه أكثر من اللوم وأقسى من العتاب. قالت عيناه: باطن الأرض خير من ظهرها، ولا أريدك أن ترى ضعفي. . أن تراني هكذا" [١٤٤]، و" نظرت إليه العيون باستغراب متسائلة، تابع: والله ما لكم ذمة" [١٤٥]، و" ومد إلى دحام ورقة كبيرة مطبوعة، فاستلها منه بلهفة واحترام. تطلع إليها، هز رأسه دلالة على الاهتمام الكبير" [١٤٦] – " ظل نعيم جالسًا حين دخل فواز، وحتى التحية لم يكلف نفسه بالرد عليها. هز رأسه قليلاً، ونظر إلى فواز نظرة أقرب إلى العداء، وكأنه لا يثق به، وبعد فترة صمت سأل:

– أتعرف القراءة والكتابة؟

هز فواز رأسه دلالة الإيجاب" [١٤٧]

٢ – هزات الرأس وحدها: " حرك ابن الراشد رأسه ولم يجب لكن تنهد بحرقة، خاصة وقد بلغه ما يتناقله الناس" [١٤٨]

٣ – النظرات وحدها: وقد برع عبد الرحمن منيف في توظيف لغتها لتدعيم الصمت: " نظر إليه نعيم بتحديد أقرب إلى التأنيب" [١٤٩]. و" كانت عينا نعيم تتفرسان في وجه هذا الفتى، تراقبان حركاته، تكتشفان أي إنسان يكون. وإذا كان فواز قد تعلم الكثير من أبيه، فإن أحد الدروس التي أتقنها، وكثيرًا ما كان يُختبر فيها حين كان في وادي العيون، أن يتطلع إلى وجوه الذين يتحدث إليهم؛ لأن الإنسان إذا

عجز لسانه تتكلم عيونه، وربما لم ترق لنعيم هذه النظرات المحددة الصلبة، والتي تحمل عداءً مقابلاً أو على الأقل عدم التقدير الذي كان يتوقعه، سأل بسخرية:

– ما هو الشيخ؟ وماذا تعلمت؟" (١٥٠)

والنظرات الصامتة تؤكد الكلام المسموع دون كلمات: " نقل جوهر عينيه بين رضائي والأميركيين، يريد أن يؤكد كل كلمة قالها حسن رضائي" (١٥١). والعائدان إلى حران بعد غياب امتد لسنوات يفكران في تركها مرة أخرى: " أحس أهل حران بذلك من النظرات، ومن ذلك السهوم الذي كان يسيطر على الرجلين في لحظات معينة، رغم أنهما لم يقولا كلمة واحدة تشي بذلك" (١٥٢)

ثم إن الصمت مع معينات من النظرات، يحل في الحوار محل الكلام الذي كان من المتوقع أن تُقال: " نظر إليه شعلان بعذاب. كان في عينيه رجاء أقرب إلى التوسل، كان يريد أن يوافقه، أن يصدقه. اقترب من فواز، صبَّ نظرات حزينة في عينيه. كانت نظرات متسائلة: " وأنت. . شفته مثل ما أنا شفته؟" ظل فواز صامتًا وقد اجتاحته حالة من الخوف، وبكثير من اليأس قام شعلان واتجه إلى الخيمة" (١٥٣)

" وفواز الذي تمالك نفسه، وأصر على أن يكون أقوى من الصخر، خاصة في مواجهة تلك العجوز التي تركها في الحدرة، كان يحس بحزن ثقيل، الأمر الذي أربك صويلح، فتساءلت عيناه مرات كثيرة ما إذا كان خائفًا أو عادت إليه تلك الهواجس التي ملأته في رحلة العودة من وادي العيون إلى الحدرة، ورغم أنه بذل جهودًا كبيرة من أجل أن يخفف عنه، أن يشغله بأمور كثيرة، فقد ظَلَّ بادي الحزن. أما حين أخذ يغني، وفعل ذلك عدة مرات، وأبدى رجال القافلة سرورهم بغنائه؛ فقد شعر أن غناءه في هذه المرة حزين وأقرب إلى اللوحة" (١٥٤)

٤ – التبسم: " أما محاولات دحام في أن يستبقي نعيم على العشاء، فقد قابلها الرجل بابتسامة تحمل معنى الرفض أكثر مما تحمل معنى الاعتذار" (١٥٥)

٥ – قلب الشفتين: " قلب إبراهيم الفالح شفتيه دلالة على عدم الاهتمام" (١٥٦). و" مط عبد الله السعد شفته السفلى ساخرًا ولم يُجب. خيم الصمت" (١٥٧)، " وحين قلب آكوب شفتيه لا يعرف الإجابة، تابع راجي: جاك الموت يا تارك الصلاة" (١٥٨)

٦ – هز الكتفين: " ومحمد عيد الذي فوجئ بهذا الموقف، هز كتفيه ولم يجب"(١٥٩)

٧ – حركة اليدين والأصابع: صور عبد الرحمن منيف ببراعة واضحة استقبال الأم ابنها الذي طال غيابه، فقال: " لحظات قاسية عاتية ليس بالنسبة لعبد الله وأمه فقط، وإنما لجميع الذين كانوا. والأم إذا ظلت صامتة، ويدها فقط ترحل من مكان إلى آخر، وكأنها بهذه اليد تسأل، تتفحص، تتأكد، حتى اللحية الصغيرة التي تلمسها بكثير من الحنان وما يشبه المتعة، وأخذت تقبل يدها، ثم ترتفع وتقبل اللحية ذاتها، فلما اطمأنت، أو ربما ثملت، ارتخت يداها، أسبلتهما، لكن بين فترة وأخرى تمتد إحداهما أو الاثنتان معًا لتتلمس المخلوق الغريب الذي انفجر فجأة، كانت تفعل ذلك وكأنها تتلمس طفلاً رضيعًا" (١٦٠)

المبحث الرابع

أدوار الصمت الفنية(البلاغية والسردية والتداولية)

وهي غير دواعيه؛ فالمقصود بها هنا إسهاماته في بناء الصرح الجمالي للنص الأدبي، من ناحيتين: الخطاب(الرسالة التي يريد الكاتب إيصالها)، والنسيج أو البناء السردي، كما في التمهيد لحدث درامي مهم، أو الاختصار في الأحداث أو الزمان(عنصر التكثيف)، وإسراع وتيرة السرد أو تجميد موقف درامي معين، أو التأكيد على الواقع بين قوسين من الصمت: سابق له ولاحق؛ من منطلق أن " الصمت في النص السردي هو قول غائب يلفت النظر بغيابه" (١٦١)

الصمت إذن فن، وأداة سردية مهمة في يد الروائي الحاذق؛ فهو منظومةدلالية وتداولية كاملة، تتكامل مع المنطوق، بحيث تقود إلى درجة ما من الكفاءة اللغوية، لا يمكن الوصول إليها إلا عبر منظومة الصمت تلك. إنه" أعظم فنون المحادثة" كما يقول الخطيب الروماني الشهير شيشيرون(١٦٢)

والأديب الماهر هو الذي يجيد استثمار إمكانات الصمت في نسج خيوط عمله، خاصة إن كان عملاً ذا بناء درامي واضح كالرواية. والكلمات – مهما كانت دقيقة محددة المعاني – ليس بإمكانها أن تعبر عن كل ما يريد المرء قوله؛ ولهذا لابد من مكملات، قد يكون منها الصمت، وربما كان الصمت المفعم بالمشاعر أقوى من الكلمات المنطوقة، وله تأثيره الأعمق؛ فالكلام المنطوق مقيد بإمكانات جهاز النطق، وخطِّيَّة اللغة، وضوابط المقام، أو السياق بمعنييه الخاص والعام، وهذا كله لا يقيد الصمت، المتحرر منها جميعًا، ومن أحادية الجهة، حتى إننا بالصمت قد نتكلم أكثر! ثم إن الكلمات قد تغدو سببًا للالتباس، فيكون الصمت أنجع وسيلة لتفادي هذا الالتباس.

وابن الصحراء يرتضع الصمت من لبانها، ويتدرب عليه، ويعتاده[١٦٣]، كما يتعلم كيف يخرقه في الوقت المناسب وبالشكل المناسب، حين يشدو بالشعر الرائق أو القول الموجز الفصيح. الأصل في الصحراء الصمت، وهو الرحم الذي تخرج منه الكلمات، وإلى سماتها انتماؤه في النهاية " ففي أعماق الصحراء، حيث يجد الإنسان نفسه في هذا المدى اللامتناهي مع الصمت ومع الطبيعة في حالتها البدائية البكر، لا تتاح فرصة من أجل أن يعيد الإنسان تقييم ما جرى، وإنما تتم عملية شاقة تمارس بهدوء وصمت من أجل أن يتشكل الإنسان على نحو جديد" [١٦٤]

ولو طُلب من الباحث أن يلخص ستمائة صفحة – هي صفحات رواية التيه – في كلمة واحدة، لقال: " الصمت" ، أو في كلمات قليلات لقال: " تجليات الصمت وتحولاته شكلاً ومضمونًا" !

هذا فحوى الخطاب، أو الرسالة التي يستشعر القارئ المدقق للرواية أن عبد الرحمن منيف يريد أن يوصلها إليه عبر هذا الجزء من خماسيته" مدن الملح" . ولا عجب؛ إذ لمقاطع الصمت – كما لمقاطع الصوت – دورها وأثرها في تدعيم البناء السردي للرواية، بل إن الصمت هو العمود الفقري أو حجر الزاوية الذي بني عليه عبد الرحمن منيف صرح روايته، ويمكن أن نعيد قراءتها انطلاقًا منه.

وليس الصمت بالضرورة حالة سلبية خاصة، في مقابل إيجابية التكلم وطبيعيته، بل إن المتأمل المدقق يلحظ ميلاً غالبًا في ثقافتنا العربية الإسلامية – حتى اليوم – إلى " موقفية" الصمت ومنهجيته.

ولنبحر في التيه مع عبد الرحمن منيف منذ أن حاول متعب الهذال خدش الصمت، حين" رفع البندقية باتجاه السماء، باتجاه القمر وأطلق. دوت الطلقة، فخدشت الصمت، وملأت رائحتها رئتي متعب الهذال. جرَّ الترباس فخرجت الطلقة الفارغة بقوة وعبقت في أنفه رائحة البارود أكثر من قبل" [١٦٥]

ثم يأتي التحذير على لسان إحدى الشخصيات، شخصية نجمة، قبل أن تموت، فكأنها وصية مودع، أو تحذير في آخر رمق: " من وادي الجناح حتى الضالع، ومن السارحة حتى المطلق وأبعد، الناس على وجوهها هايمة، ما يندري قايمة أو نايمة. . . ما تعرف وين رايحة ومنين جاية. الغريب يتحكم بابن الديرة، والأجنبي يتحكم بابن العشيرة" (١٦٦)

وإذا كان الدباسي يرغب في خدش الصمت، لكنه يعجز فيتكلم بعينيه: " كان يريد أن يقول للعمال أن يصمدوا، أن يثابروا؛ لأن عينيه برقتا بغضب. وحين صاح أحد العمال: " ودم مفضي يا أبو صالح؟" فقد نظر إليه طويلاً، لكنه لم يستطع أن يرد لأن كلمة مثل هذه لو قالها لابد أن تصل إلى دار الإمارة، وبعدها سيطرد من حران" (١٦٧)

فإن صويلح يخطو أبعد من هذا بالغناء، ليقف في درجة وسطى بين" خدش الصمت" الذي حاوله متعب الهذال في بداية الرواية، و" كسر حاجز الصمت" الذي ينجزه مفضي في آخرها: " لم يترك صويلح قصة سمعها عن الرجال الذين سافروا إلى الأماكن البعيدة إلا وأعادها عليه، وحين وجده صامتًا بعيدًا بدأ يغني. وصويلح حين يغني ينتزع الأحشاء. لقد سمعه مرات كثيرة، لكن هذه المرة، وهما في طريقهما من روضة المشتى إلى عجرة، غنى بطريقة لم يعهدها فيه. كان يصعد وينزل كما لو أن حمامة وصقرًا يتحاوران. كان صوته يغيب حتى يتلاشى، ثم فجأة يصرخ ويعلو حتى يصلا السماء" (١٦٨)

وصويلح إذ يُغني غناءً حزينًا يكسر الصمت، ويقطع العلائق مع الواقع الجديد، ويربط بغنائه أخرى بالأصول: " يذكر الكثيرون أنه في الليلة التي كان القمر بدرًا، وكان صويلح في حالة من الوجد، فغنى غناء خافتًا أقرب إلى البوح الحزين، ورفض أن يرفع صوته أو أن يغير نبرته، رغم الإلحاح، ورغم المقاطع الأولى التي حاول العمال إغراءه بها، يتذكر الكثيرون أن مزبان ظل صامتًا وحزينًا، وأنه لم يتكلم إلا مرة واحدة طوال السهرة التي امتدت ساعات، قال: " يا جماعة. . والله هالبحر كله ما

أبدله بالبير اللي بديرتنا، والليلة ابن هديب فتح جروح مالها تالي" قال هذه الكلمات في لحظة صمت وفي لحظة لوعة، وما كان الرجال ليتذكروا هذه الكلمات لولا الحادثة التي وقعت" (١٦٩)

وبينما نجد الصمت في ذاته مُعبرًا عن" موقف" رفض، مقترن بانسحاب وعزلة، ويعبر عن تمزق الزوجة المحبة أمام فكرة رحلة زوجها المحفوفة بالمخاطر عند غسان كنفاني، تتنازعها الرغبة في تحسن الأحوال المادية، والرهبة من فقدان زوجها(١٧٠)

ففي المقابل كثيرًا ما نجد في روايات عبد الرحمن منيف محاولات إيجابية لكسر حواجز الصمت عبر وسائل أشهرها الإلحاح في السؤال، كالذي تفعله أم الخوش، حين تسأل كل أحد بل كل شيء عن ابنها الغائب(١٧١)

والمشكلة كلها في الصمت، والتحريض على كسر هيمنته، وهذه المهمة ينجزها – بتطور محسوب – عدد من أبطال الرواية، أولهم متعب الذي" يخدش" الصمت مجرد خدش لأنه في بداية الرواية، بينما" مفضي" تُفضي تصرفاته وموته إلى كسر حاجز الصمت تمامًا في نهايتها!

– والواقع أننا – منذ بداية الرواية – إزاء موقفين ضدين من الأمريكان الوافدين: موقف ابن الراشد الذي يرى الخنوع ضربًا من إظهار الكرم للغرباء الضيوف، ومتعب الهذال –أيقونة الممانعة والمقاومة طوال الرواية – الذي يصيح به: " اذبح لهم، اضحك، سولف. . لكن مثل الرجال" (١٧٢)

أما أن يعود العمال العرب بعد يوم عمل شاق إلى المكان الذي خُصص لهم كالقطيع، حلوقهم جافة بها طعم العلقم، وخطواتهم قصيرة متعبة ذليلة، بينما الصمت كامل يغلف المشهد كله، فهذا تصوير عبد الرحمن منيف الدال على حقيقة الأمر(١٧٣)

وسائر أهل حران صامتون صمت الاستسلام، ساكنون سكون الموت وهم بعدُ على قيد الحياة، حتى حين " يقومون" لا يكون لقيامهم صوت! " وقام الرجال، وكان لقيامهم وحركتهم ضجة مسموعة لكن لم يرافقها أي كلام. الأمير الذي مشى متقدمًا خطوة أو اثنتين عن الآخرين، وبدا واثقًا، كان في أعماقه مرتبكًا وفي عجلة من أمره. طلب بإشارة من يده إلى حسن رضائي أن يكون قريبًا منه، وقد ألح عليه أن يتقدم أكثر، فاستجاب الرجل بحركة عفوية متقنة" (١٧٤)

ثم إن عبد الرحمن منيف يعبر عن إحراق بعض البدو لخيام الأمريكيين الدخلاء هكذا: " وفي إحدى الليالي التي امتلأت بالمطر والرعود، وكأنها تريد أن تمزق صمت الصحراء الذي تراكم منذ آلاف السنين، في تلك الليلة النادرة انفجر طيف أقرب إلى الشبح، فبدد السكينة وملأ حياة الأمريكيين ولياليهم بفزع أقرب إلى الجنون" (١٧٥)

ولعل هذه العبارة تكشف عن الرسالة التحريضية المضمرة في البناء السردي للرواية كلها: " مقاومة الصمت الخانع" . ثم يحدث التحول التدريجي من الصمت الخانع الذليل أو صمت الخاضع الخائف إلى صمت العداء الممهد للسجال باللسان واليد:

" ومن جديد أصبح متعب الهذال هاجسًا يملأ حياة المعسكر، وترافق هذا مع عداوة صامتة تزيد وتترسخ بين العمال والأميركان؛ فالرقابة الشديدة التي فرضت، خاصة أثناء فترات الراحة، وضرورة إبلاغ مفرزة الحراسة عن أي غرباء أو عابرين، قابلها العمال بالصمت والتجاهل، ثم في وقت لاحق بالشتائم والمعارك" (١٧٦)

وأخيرًا، وبعد طول انتظار، وقرب نهاية الرواية، يراجع أهل حران موقفهم من الصمت، بعد مقتل مفضي الجدعان، وطرد الأمريكيين ثلاثة وعشرين من العمال: " ولماذا يجبرهم الأميركيون على القيام بأعمال لا يفكر أي واحد منهم القيام بها؟ ومع

أنهم سكتوا ورضوا بكل شيء، فإن الأميركيين لا يرضون ولا يوافقون على مجرد استمرارهم في العمل" (١٧٧)

و" مفضي" يثور في وجه طغيان المادية الغربية: " فما كاد المال في حران يزيد ويتدفق بين أيدي الكثيرين حتى تغير مفضي تغيرًا عجيبًا، وهذا التغير يزداد ويكبر ما زاد المال وما كثر. ومفضي الذي تعلم السكوت خلال السنين الطويلة، لم يستطع ذلك بعد الآن" (١٧٨)

ومفضي هو المذكور هنا، وهو القائم بهذا الدور بالذات؛ لأنه الذي مهد لكسر حاجز الصمت، وحمل لواء الريادة الاجتماعية على هذا الدرب، أفضت كلماته وأعماله – ثم قتله في النهاية – إلى هذا الذي حدث(١٧٩)

وبعد الانتهاء من الكلام عن صلة الصمت بالخطاب في رواية التيه، من المهم الإشارة إلى بعض وظائفه السردية، كالآتي:

١ – الصمت حيلة سردية لتضخيم الصوت:

ومن المشيرات إلى الصمت السابق للصخب المؤكد له، قول عبد الرحمن منيف: " وأخذت الضجة والأصوات تبتعد وتتداخل إلا أنها لم تتلاش أبدًا. وحتى وقت متأخر من الليل ظلت أصوات الموسيقى تُسمع من أماكن بعيدة، وفي اللحظات التي تنقطع كان الرجال المرابطون على الشاطئ يتوقعون شيئًا ما في اللحظة التالية؛ لأن كل مرة يخيم الصمت فيها ويمتد لدقائق قليلة، كان ينفجر بعده الصخب عنيفًا قويًا، ثم تتبعه موسيقى أقوى من المرات السابقة، ولأن هذه اللعبة تكررت فقد أصبح انتظارها ومراقبتها لذيذًا وقاسيًا معًا" (١٨٠)

" وما دام الصمت مخيمًا والرجال يتبادلون النظرات كان الصوت يصلهم طويلاً ممدودًا، كأنه صوت كلب جريح" (١٨١)

٢ – الصمت القصير لإضفاء مزيد أهمية على الكلام التالي وتشويق المستمع له، أو الحدث السابق (مع حركات جسدية مصاحبة مساعدة):

من باب أنه " بعد الصمت تأتي الخوارق" – " وبعد فترة من الصمت، لكي يترك أثر الكلمات التي قالها تترسب في أعماق المريض، يضيف وهو يبتسم ابتسامة الواثق:

– بعدما يفحصك ويصف لك الدواء، الإبرة جاهزة، وهذه الإبرة في خمس دقائق تؤدي مفعولها، وإن شاء الله تكون فيها العافية" (١٨٢)

ثم هناك صمت آخر، هو صمت ما بعد بكاء أم الخوش! " وكثيرًا ما كانت النساء يشاركنها في نحيب مكتوم، حتى إذا هدأت ران صمت ثقيل موجع" (١٨٣)، ولا عجب؛ فقد وقر في النفس البشرية أن الصوت أُنسٌ وحياة والصمت وحشةٌ وموت(١٨٤)

٣ – الصمت من معينات التخيل أو الاستنتاج:

ينتهي يوم العمل، فيعود الأمريكيون إلى أماكنهم والعرب إلى أماكنهم البعيدة عنهم، ويخمن العرب أن الأمريكيين " يغرقون في برك السباحة، حيث تصل أصوات ضجتهم إلى البركسات القريبة من الأسلاك، أو يخيم الصمت فيقدِّر العمال أن الأميركان دخلوا إلى تلك الغرف المبردة وراء الستائر التي تصد كل شيء: ضوء الشمس والغبار والذباب والعرب" (١٨٥)

٤ – الصمت وسيلة سردية لازمة للتصوير الأسطوري للشخصية:

" والنسوة في البيوت حتى البعيدة منها على التلال الغربية، قلن إنهن رأين مفضي الجدعان، كان يمر مسرعًا ولم يتوقف ولم يتحدث إلى واحدة منهن، لكنه كان يبتسم ويشير بيده" (١٨٦) – " كان الصمت، وكان القمر. كان متعب الهذال في الفلاة الكبيرة وحيدًا. تأمل السماء والنجوم واستنشق الهواء بقوة. شعر أنه يريد أن يفعل شيئًا غير عادي. قال بصوت أقرب إلى الانفعال والحدة:

– دوك يا جوف الليل.

رفع البندقية باتجاه السماء، باتجاه القمر وأطلق. دوت الطلقة، فخدشت الصمت، وملأت رائحتها رئتي متعب الهذال" (١٨٧)

٥ – والصمت جزء من الغموض الذي يلف الشخصية:

" هذا الكهل المتين، الذي لا يمكن لإنسان أن يحزر عمره، الصامت أغلب الوقت، إلا عندما تنتابه لعنة الغناء، فيخرج صوته من منخريه، ولا يعرف ما إذا كان غناؤه تعبيرًا عن فرح أم حزن، ولا يُميز في هذا الغناء سوى كلمة واحدة تتردد: آمان آمان" (١٨٨). و" إذا وصل هذا الكلام أو بعضه إلى آكوب يبتسم ابتسامة صغيرة ولا يتكلم. إنه شديد الثقة بنفسه وبإمكانياته. وحتى الأشياء التي لا يعرفها يقول إنه لا يعرفها، ومع ذلك يحاول" (١٨٩)

ومن توظيف الصمت للدلالة على الغموض والإثارة أيضًا قول منيف: " إضافة إلى العمال الذين سيعملون في الشركة، كان يأتي آخرون يقضون أيامًا في حران وهم يذرعون الأرض من الشاطئ وحتى التلال البعيدة، يقيسون بأرجلهم أو بحبال المسافات بين مكان وآخر، ثم يضعون رجومًا صغيرة من الحجارة هنا وهناك لتعليم الأمكنة وتمييزها، حتى إذا فرغوا من ذلك أخذوا يطيلون التأمل وفي بعض الأحيان إعادة القياس. لما تنتهي هذه العمليات ويسافر هؤلاء الناس يستريح أهل حران من أولئك الصامتين الغامضين الأقرب إلى السحرة في حركاتهم وتصرفاتهم" (١٩٠)

٦ – أهمية الصمت في مقابل الصوت لتصوير حالتين متقابلتين:

تعبر كلمات أمير حران عن خطورة الصوت في مقابل الصمت، حين يقول: " الصوت. . نعم الصوت يا أبو رشوان أهم شيء. ويش يقول الناس، ويش يفكرون، لا كيف يظهرون. . هذا هو المهم" (١٩١)

ويسجل منيف صمت العرب في مقابل صخب الأميركان: " مقابل الصمت الذي كان يملأ حران العرب، والمتابعة الدقيقة الملهوفة التي كانت تحكم كل واحد من الرجال الذين جلسوا على الشاطئ، بلغت الضجة على الباخرة وعلى اليابسة، في حران الأميركان، حدًّا لا مثيل له" (١٩٢)، و" كان لدى الكثيرين كلمات أو تعليقات يمكن أن يقولوها، لكن الحركة النشيطة والموسيقى الصاخبة القوية، وهذه المشاهد التي تتوالى بسرعة لم تترك لأحد أن يتكلم حتى لو أراد" (١٩٣)

وما الحل في رأي عبد الرحمن منيف(على لسان ابن الزامل)؟ ابن الزامل يكلم رفاقه من العمال في حران العرب، داعيًا إلى هجر العمل مع الأمريكان والعودة إلى الديار: " – يا جماعة. . إذا سكتنا متنا مثل ما يموت فأر السجن، وما دام الموت هو الأول والأخير فالموت عند الأهل أخير من الموت بين العفاريت الزرق. .

توقف قليلاً وسأل:

– إذا غرَّبت من يغرب معي؟

نظر في الوجوه بتساؤل أقرب إلى التوسل. كان يريد صوتًا، موافقة، فلما وجد الرجال صامتين حائرين، قال كأنه يكلم نفسه:

– باكر تندمون، لكن ما تنفع الندامة" (١٩٤)

٧ – نقل الرسائل والمضامين الفكرية عبر توظيف الصمت:

جوهر المسئول عن الأمن في حران، ويتناسب صمته مع السلطة وميزان القوة بالنسبة للآخر:

" وجوهر أي إنسان هو؟مع الأميركيين كأنه النعجة: يصمت، يستمع بأدب، يهز رأسه مع كل كلمة يقولونها له، ومع نعيم شعيرة، النصّيص، يضحك، يتحدث كما لو كانا صديقين أو أخوين، أما إذا التفت ورأى بعض العرب فلا يتردد أبدًا في أن

يشتمهم وأمام الأميركيين بشكل خاص، بل وبلغ به الأمر أن استعمل عصاه عدة مرات دون سبب" (١٩٥)

وهكذا يتوزع الصمت ويتحدد الكلام إلى ثلاثة مستويات: صمت الطاعة مع الأمريكيين مع لغة جسد تؤكد تلك الطاعة وذلك الخضوع، وحديث أخوي ضاحك مع نعيم المترجم، الذي هو همزة الوصل معهم، وفي المقابل يقع السباب والضرب بالعصا والإهانة لأهل حران، ويكون هذا أمام الأمريكيين بالذات. ومن ثم، ليس بمستغرب أن نجد حوارًا لا يشارك أحد طرفيه فيه إلا بالصمت، في إخلال متعمَّد بالمبدأ التعاوني cooperative principle، الذي هو افتراض أساسي في كل محادثة، مفاده أن كل مشارك سيحاول الإسهام بشكل مناسب، وفي الوقت المناسب، في تبادل الحديث الآني(١٩٦)

ملتزمًا بما يفرضه هذا من التزامات تتعلق بكِمِّ الكلام، وكيفه، وصلته بموضوع المحادثة، ووضوحه، وإيجازه، وانتظامه(١٩٧)

والإخلال بأيٍّ من العناصر السابقة كفيل بأن يقود إلى اضطراب في التواصل، أو عزوف عن مواصلته، أو موقف منه يظهر على شكل صمت، يسميه التداوليون صمتًا معزوًا attributable silence، ومعناه غياب الكلام عندما تتاح للمرء فرصة الكلام في المحادثة(١٩٨)

ومما نجده من هذا النوع في رواية التيه ما عبر عن موقف هو اعتراض الصامت، ومنه ما عبر به الكاتب عن أن المبادرة والفعل بيد المتكلم وحده! في براعة لا تخطئها العين في التشكيل السردي للرواية: " ارتمى على البساط، بعد لحظات جاءه شعلان. كان وجهه متسائلاً وأقرب إلى الخوف. قال متعب الهذال، وهو يسند البندقية إلى الأرض بوضع مائل:

– ها، يا وليدي، تراك خفت؟!

ابتسم شعلان وتطلع إلى أبيه بتساؤل، لما رآه هادئًا مستقرًا هز رأسه دلالة النفي. قال متعب الهذال وقد اشتعل وجهه بالفرح في ضوء القمر:

– لما جيت للدنيا شعلنا بارود للصبح. .

هز الشاب رأسه وقد امتلأ بالاعتزاز. تابع متعب الهذال:

– واليوم، يا وليدي، جاءك أخ.

ضحك شعلان دلالة المعرفة والموافقة. أضاف متعب الهذال:

– ويلزم أخوك أن يشم ريحة البارود حتى إذا كبر ما يفزع" (١٩٩)

أما الصفحتان الثانية والثلاثون والتي بعدها، فصفحتا الصمت بامتياز؛ إذ تنتظم فيهما حباته، وتتوالى، وتترابط لتنجز حوارات كاملة، وتعبر عن مواقف تخدم تطور الأحداث في إطار البناء الدرامي العام للرواية :

أ – فواز يرفض أن يصحبه أخوه إبراهيم في سُقْيَا الأغنام، فيكون هذا سببًا في عودته متأخرًا جدًا، وإبراهيم يوحي إليه – دون كلمات – بأهمية وجوده.

" أما إبراهيم فقد أخذ يدور حوله بطريقة ماكرة، دون أن يقول كلمة، لكن ليشعره أيضًا بأهميته والفائدة التي كان يمكن أن يجنيها لو كان معه(٢٠٠)

ب – وفواز يرد بعنف ودون كلمات أيضًا على رسالة إبراهيم: " تابع فواز طريقه دون أن يتوقف أو يقول كلمة ليفسر تأخره، لكن شيئًا عصبيًّا سيطر على حركاته وجعله يصرخ على الغنم بقسوة لكي تدخلالحظيرة بسرعة، وعلى الجمال لكي تتوقف تمهيدًا لإناختها وعقلها، وبعد قليل صرخ في وجه إبراهيم، الذي كان لا يزال يدور حوله، طالبًا منه إنجاز ما تبقى من أعمال" (٢٠١)

جـ – والأب يعلق – دون كلام منطوق – : " لم يكن في تلك اللحظة مستعدًا للتبرير، كان يريد أن ينقل لأبيه ما شاهده وما سمعه. لكن ما كاد ينظر إلى وجهه

على ضوء النور الخفيف المنبعث من بقايا الحطب الذي ما زال مشتعلاً، حتى التمعت عينا متعب الهذال بابتسامة هي بين السخرية والشفقة، وكأنه يريد أن يقول له دون كلمات" يجب أن تكف عن العناد وطلب السفر. . ما زلت صغيرًا ويجب أن تنتظر!" أما حين أنزل عينيه واستمر في تقليب الجمر، فقد شعر فواز أن أباه لا يريد تفسيرًا أو تبريرًا لما وقع؛ إذ استمر بحركته الخفيفة المتقنة في تقليب الجمر تمهيدًا لمواصلة صنع القهوة" (٢٠٢)

د – ومحصلة هذا الحوار الصامت بالكامل هي شعور فواز بالإحباط والخيبة: " شعر فواز بالخيبة وأسقط في يده؛ فجلسة العجوز على مسافة من البيت، وبتلك الطريقة، ثم حركة إبراهيم المليئة بالرعونة والتحدي، وهذه النظرة السريعة المثقلة بالعتاب من أبيه، وبما يشبه عدم الثقة، ثم الصمت الذي ميَّز هذه المواقف جميعًا، كل ذلك أشعره بالخيبة تمامًا، ثم بالخطأ الفادح" (٢٠٣)

هـ – ويحاول تحطيم جدار الصمت، وينجح بعد لأي؛ لأن أباه ظل معتصمًا به حتى آخر لحظة ممكنة:

" قال لأبيه الذي ظل واثقًا من حركاته وانشغاله: – عند ابن الراشد ضيوف غرباء. .

سقطت كلماته بين الجمر وأصوات الدلال، وظل أبوه يواصل عمله كأنه لم يسمع ولا يريد تبريرًا للتأخر. شعر بالتحدي، قال بصوت حاد وعصبي:

– من الفرنج ويتكلمون العربي.

لما قال هذه الكلمات رفع أبوه إليه عينين متسائلتين، وانتظر أن يسمع شيئًا جديدًا. أضاف وهو يجلس مقابله، والنار ودلال القهوة بينهما:

– ثلاثة أجانب، ومعهم اثنان من عرب الزور، ويتكلمون العربية.

وتغيرت لهجة فواز ليخلق تأثيرًا قويًّا:

– يتكلمون بطريقة مختلفة عن طريقتنا، بطريقة مضحكة، لكن يمكن أن نفهم ما يقولون.

وفجأة رأى أباه يتغير، تتجمع حواسه في عينيه، ينظر إليه بإمعان وحده، وكأنه يريد أن يقرأ في وجهه وعينيه ما رأى، وأية انطباعات ترسبت في نفسه، لكي يقدر أي نوع من الرجال أولئك الذين رآهم. سأل ببطء:

– وعرفت منين وش يريدون؟" (٢٠٤)

وأهل حران صامتون في كل احتكاك لهم مع الغرباء، وصمتهم هذا صمت الرهبة أو الخوف أو الرغبة أو الدهشة أوالترقب، أو الضعف، أو الخضوع والاستكانة. بل هم صامتون على كل حال!

وأهل حران لما سمعوا بموت ابن الراشد، تبادلوا بينهم نظرات التساؤل، غير مصدقين أنه مات(٢٠٥)، حتى حين قُتِل أحدهم، أعني مفضي الجدعان!" ورغم أنهم توقفوا عن الأكل إلا أنهم ظلوا في أماكنهم وظلوا صامتين. ولا يعرف أي وقت مر ولماذا جاءت خزنة الحسن. لما رأت الرجال صامتين قالت بصوت خشن مضطرب:

– دم مفضي برقابكم، برقبة كل واحد منكم.

تطلعت إليها العيون وارتدت إلى الأكل الذي لم يؤكل منه إلا القليل. لم يجرؤ الرجال على أن يتطلع بعضهم إلى بعض، ولم يجسروا على الكلام" (٢٠٦)

ونساء حران صامتات دائمًا، حتى لو تحدث رجالها!" وإذا كان الرجال قد تحدثوا بغضب، وشتموا، فإن النساء أصغين وهن صامتات ثم انحدرت دموعهن" (٢٠٧). وأميرها أيضًا الصمت غالب عليه، خاصة مع الأجانب: " كان الأمير يستمع بصمت، يهز رأسه، لكنه لم يكن يفهم بوضوح ما يقوله هاملتون. صحيح أن الترجمان ينقل

إليه كلامًا عربيًا، وقد سبق أن ترجم بين الاثنين مرات كثيرة، وكان ما يقوله مفهومًا، الآن ما ينقله لا يبدو مفهومًا بالمقدار الكافي" (٢٠٨)

لكنه في النهاية تعبير بارع من عبد الرحمن منيف عن " السلبية" وترك المبادرة بأيدي الآخرين، مهما كان التحدي، ومهما كانت الإثارة الدافعة للتحرك، ومهما كان الخطر المحدق بهم!

وكأني بعبد الرحمن منيف يعبر عن قضية أعمق، وأمة أشمل بكثير من مجرد قرية عربية على ساحل الخليج؛ فالرجل روائي لامعُ، وقاصٌّ مبدعُ، تشهد له بذلك خماسيته الشهيرة " مدن الملح" ، التي ترصد مرحلة مفصلية في تاريخ العرب الحديث، هي وفود شركات البترول بعمالها وآلاتها، وعاداتٍ وتقاليد وأساليب حياة مغايرة تمامًا لما استقرت عليه حياة أهل المنطقة لقرون. وتعددت مواقف الناس من هذا التغير العنيف، وكان الصمت من أبرزها؛ لأسباب حاول عبد الرحمن منيف أن يرصدها، ويرى الباحث أنه فعل هذا ببراعة منقطعة النظير.

والصمت عنصر سردي واضح، بل مهيمن على رواياته تلك، حتى إنَّ تناولاً تحليليًّا نقديًّا – سرديًّا أو غير سردي – يغفل هذا العنصر، لهو تحليل ناقص في رأي الباحث؛ لأن لهذه الظاهرة في رواية " التيه" مبرراتها على المستويين الفني والتاريخي، وما النقد إلا تحليل للخصائص الفنية للنصوص الأدبية، في ضوء ما هو متاح من قرائن تاريخية وسياقية.

وهاهم عمال من حرَّان العرب يدخلون لأول مرة إلى منطقة من مدينتهم غيَّر الأمريكان ملامحها تمامًا:

" كانوا ينظرون بصمت. لم يجرؤ واحد منهم على السؤال. . . وطال انتظارهم، في هذا المكان، بدءوا يتبادلون النظرات، وكانت النظرات مزيجًا من التساؤل والرهبة، وكانت عيونهم تتكلم دون توقف، أما الصمت الذي سيطر في البداية فقد تحول إلى

همهمات غامضة متداخلة" [٢٠٩] – والعمال العرب صامتون وهم في طريقهم للاختبار والتصنيف[٢١٠] – صامتون في أثناء لقائهم بالرجل الأسود الذي يختبرهم[٢١١]، حتى حين حاول التقرب إليهم، وأعلن أنه مسلم مثلهم: " كانوا خائفين ومرتبكين. فهموا ولم يفهموا في وقت واحد. صمتوا" [٢١٢].

" وقال الدباسي لأهل حران:

– يا جماعة الخير: أهل حران هم العصب، وعظم الرقبة. . لا تخافوا. وحين صمت أهل حران، على عادتهم، أضاف بنوع من النزق: أنتم لا تحتاجون إلى الناس، الناس يحتاجون إليكم. صحيح أنكم فقراء اليوم، لكن كل الناس يقولون الذهب تحت أرجلكم. . . اصبروا. . . وظل أهل حران صامتين. نظروا إليه نظرات أقرب إلى المسكنة ولم يتكلموا" [٢١٣]

والملاحظ أن الصمت موقف ثابت لأهل حران، ضعفًا واستكانة، وترقبًا لما سيحدث، ومن ثم فهم منفعلون لا فاعلون، كذا تعمد المؤلف أن يصورهم، ويركز على هذه الصفات فيهم بالتركيز على الصمت، المشير لانعدام الفعل. وهذا توظيف سردي بارع، يضع المؤلف فيه الصمت في بؤرة الحدث الدرامي المتصل من بداية الرواية إلى نهايتها، كما فعل الروائي الفلسطيني غسان كنفاني في روايته" رجال في الشمس" ، حين صمتت زوج أبي قيس تاركة القرارات كلها لزوجها[٢١٤]. ثم عندما حين جعل أبطال روايته الرئيسين يصمتون حتى الموت، فلم يدقوا جدران صهريج الماء الفارغ، الذي يختبئون فيه، في سيارة تهربهم إلى الكويت من العراق، وسط لهيب الصحراء اللافح، وعطشها القاتل، والصهريج الخانق. مع أن الصمت يعني الموت، والكلام يعني الحياة![٢١٥]

وقد أوحى غسان كنفاني برأيه في وجوب التخلي عن الصمت ضمنًا في البداية، قبل أن يصرح به في صرخة على لسان إحدى شخصيات روايته، تعمد أن يجعلها في نهاية الرواية تمامًا؛ ليبقى صداها في ذهن القارئ(٢١٦)

" وبعد كثير من الجهد فهم أهل حران أن الدباسي يريدهم أن يصبروا، أي ينتظروا، وفهموا أكثر من ذلك أن يتركوا له حرية التصرف، لكن مع ذلك ظلوا صامتين، وقد شعروا أنهم يدخلون معركة لا يعرفون إلى ما ستنتهي" (٢١٧)، و" تطلع الرجال في وجوه بعضهم بعضًا، وتطلعوا إلى الدباسي. بدا الموقف واضحًا أو قريبًا من الوضوح، لكن لم يتكلم أحد منهم. فلما وجدهم صامتين سأل: ما قول الرجال؟. . تريدوننا أم نرحل؟. . نرجع لأهلنا" (٢١٨)

ما زال صمت أهل حران مستمرًا، حتى حين يُساء فَهْمِ كلام أحدهم، لا يبادر بإزالة اللبس، بل ينكمش مذعورًا!" اعتدل الدباسي وقد تغير وجهه تمامًا، أخذته الدهشة، ولكي يضع حدًّا للخطأ، غيَّر جلسته أكثر من مرة، تقدم بجسده كله رافعًا يده، فلما بدا بتلك الهيئة أخذت المفاجأة الجميع، حتى ظن الكثيرون أن الأمر كله لا صلة له بالزواج، أما الرجل الذي قال تلك الكلمات فقد بدا مذعورًا وانكمش تمامًا" (٢١٩)

بل إن الدباسي المتكلم يتزوج بعد أسبوعين ابنة هذا الرجل بالذات، الذي انكمش مذعورًا حين فُهمت كلماته للدباسي على غير المراد، أي أنه منفعل إلى أقصى درجة!(٢٢٠)

الصمت ومعادلة القوة

اللغة قائمة – في مجملها – على التواصل، الذي هو" عملية انتقال المعلومات أو الأفكار أو الاتجاهات أو العواطف والمشاعر بين الذوات والأفراد والجماعات" (٢٢١)

وعلماء اللغة يقسمون التواصل إلى لفظي وغير لفظي. والصمت ضرب من ضروب التواصل غير اللفظي **Nonverbal communication**. والتواصل يُوصف بأنه فعال إذا ما وصل ما يريد المنتج للخطاب إيصاله إلى المتكلم دون غموض أو لبس. ثم إن للصمت محدداته، التي منها المحددات الاجتماعية المرتبطة بالمكانة(٢٢٢)

أ – صمت الاعتزاز بالنفس والفخر ضربٌ من صمت القوة

متعب يخرج بندقيته من مخبئها؛ ليحتفل بطلقاتها عن ميلاد طفله الجد: " تطلعت إليه المرأتان. كانت وضحة متعبة، نصف نائمة، أما حين رأت العصملية فقد تحركت بتحفز، وكأن شعورًا بالخوف أو الفرح سرى في جسدها فغيرها. تطلعت إليه بانتباه وهي ترتفع قليلاً. داخله شعور بالاعتزاز. دق العصملية على الأرض، وكأنه إعلان عن أمر ما" (٢٢٣)

وقد يكون الاعتصام بالصمت سلاحًا قويّا، ودليلاً على القوة لا الضعف. والملاحظ أن الصمت قلما اقترن في رواية عبد الرحمن منيف هذه بمعنى إيجابي، ومن هذا النادر أن العمال العرب يتباهون دون كلمات بأنهم قادرون على التكيف مع ظروف الصحراء بينما عجز الأمريكيون الدخلاء عن ذلك. بالأفعال بدل الكلمات، بالتحلق في مجالس القهوة والشاي الدافئة في ليالي الشتاء، وبرفع أطراف الخيام لجلب الهواء في قيظ الصيف(٢٢٤)

وقد يكون صمت المهابة والجلال للمواقف لا الرجال

و" خلال الأيام الأولى فكر عدد من العمال أن يتركوا حران، أن يعودوا من حيث أتوا، حالما يتسلمون أجورهم، لكن الراتب الأول الذي دفعه ابن الراشد غير قناعاتهم ومواقفهم؛ إذ لم يحلم أحد باستلام مثل هذا الراتب، ولم يدخل جيب أي منهم مبلغ مثله، وقد جرى ذلك بطقوس من الصمت والاهتمام كانت أقرب إلى الجلال" (٢٢٥)

ب – الصمت اصطناعًا للهيبة وجزء من المكانة الاجتماعية

" كان يُقَال: من طال صمتُه اجتلب من الهيبة ما ينفعُه، ومن الوَحْشَة ما لا يضُرُّه. من طلب موضعًا لسرِّه فقد أفشاه" (٢٢٦)

وقد يوسِّع الصمت الفجوة بين المتحاورين، وقد يكون هذا متعمَّدًا من أحدهما، مع دعم مناسب من لغة الجسد ومن السياق. والصامت – في هذه الحال، وبهذه النية – يحافظ على مسافة بينه وبين الطرف الآخر من الحوار عمدًا: " لم تتغير ملابس دحام وحدها، تغيرت تصرفاته، وأساليبه في التعامل أيضًا، حتى حركاته بدأت تتغير. أصبحت مشيته سريعة تمامًا مثل مشية ابن الراشد حين يكون مشغولاً أو لا يريد الدخول في مناقشات طويلة مع الآخرين" (٢٢٧)، و" ابن الراشد وحده الذي يفكر ويقرر، لا يعطي سره لأحد، ولا يستشير أحدًا" (٢٢٨). و" في لحظة من لحظات الصمت التي تعمدها وخلقها ابن الراشد، أبلغ الرجال أن أحد الذين جاءوا معه سيتولى القصابة. وقال عنه إنه قصاب أبًا عن جد، وسوف يبيع اللحم للذين يشاءون" (٢٢٩)، " أما ذلك الشاب الخجول الذي كان يلبس بنطالاً وسترة، وقد ظل بعيدًا وصامتًا، وكأنه في حلم أو يشهد مسرحية غريبة، فقد قال ابن الراشد إنه" المهندز" الذي سيبني للعرب بيوتًا يغار منها الأميركان" (٢٣٠)

أي أن الصمت قد يكون حفاظًا على المكانة الاجتماعية ولإبقاء مسافة بين الرئيس والمرءوس: وهو ما يدخله التداوليون في نطاق ما يسمونه فعل حفظ ماء الوجه face saving act، ويقصدون به القول أو الفعل الذي يبتغي به صاحبه تفادي تهديد كامن لصورته عند الناس(٢٣١).

وصمت الضعف أمام المرافق للأجانب الأمريكان في مقابل السطوة على العمال المحليين، يخدم الخط العام لرواية التيه، معبرًا عن الوضع الذي ينبغي تغييره: " ومع الخطوات الأولى في حران الأميركان، وما كاد دحام يشاهد نعيم من مسافة بعيدة،

وكان يقف مع أحد الأميركيين، قريبًا من المطعم، حتى اندفع نحوه. ركض بهرولة مضحكة، وكاد يتعثر ويقع. أما حين اقترب وأراد أن يتكلم معه، فقد أشار إليه نعيم بيده أكثر من مرة أن يصمت وأن ينتظر، ومثل طفل صغير وقف على مسافة خطوتين أو ثلاث خطوات. استمر نعيم يتكلم مع الأميركي، حتى إذا ضحكا بقهقهة عالية وربت الأميركي على كتف نعيم انصرف وهو يشير بيده، التفت نعيم نحو دحام، وتبادلا بعض الكلمات، هز رأسه واقترب منه، وظلا يتحدثان بعض الوقت ثم انصرف باتجاه الإدارة" (٢٣٢)

و" بإشارات أكثر من الكلمات أوضح دحام لابن الراشد كل شيء، ويبدو أن ما نقله إليه كان خطيرًا إلى درجة أنه هز رأسه عدة مرات دلالة الفهم والاهتمام" (٢٣٣)

ج – الإسكات من القوة الجديدة الغاشمة التي لا تريد أن تسمع

للغرض نفسه، لكن بالسير في عكس الاتجاه؛ فقد يرغم أحد المتكلمين الآخر على السكوت، بأن يسلبه " الأرضية" floor، أي: الحق الآني في التكلم(٢٣٤)؛ ذلك أن الأصل في أية محاورة أن يتبادل الطرفان الأدوار فيها، فيتكلم هذا ويصمت ذاك، ثم العكس. لكن أحدهما قد يعمد إلى مقاطعة الآخر أو حتى حرمانه من دوره في الكلام ليحسم التنافس على الأرضية – كما يسميها التداوليون – لصالحه(٢٣٥)

وفي معاجم اللغة منذ قديم: رماه بصُماتِه، أي بما صَمَتَ به. ورميتُه بصُماتِه وسُكاتِه، أي: بما صمت به وسكت(٢٣٦).

و" لم يُصدق مفضي أن الكلام موجه إليه، وحين أراد أن يتكلم، قال جوهر بنزق وهو يدير وجهه ويهز يده:

– خلصنا، اسكت، وإذا تكلمت أية كلمة تنزل تحت" (٢٣٧)، و" لم يُسمح له أن يقول كلمة، لم يُسأل، وحين حاول أن يتكلم جاءته ضربة خيزرانة على كتفه وجزء من ظهره جعلته يصرخ" (٢٣٨)

وفي عصرنا الحاضر، كثيرًا ما يمارس الإعلاميون حيلاً خطابية، تفرض على ضيفهم أن يصمت، إذا ما أرادوا له أن يصمت[٢٣٩].

وفي هذا السياق يأتي صمت الخضوع، الذي يريده قائد شرطة حران من أهلها، الذين يقول عنهم: " هؤلاء البدو أطمع من الذئاب، لا لن يتركهم يفلتون، إنهم جبناء، إذا ضرب الرئوس سوف يصمت الآخرون، يصبحون كالنعاج، لا أحد يتكلم، لا أحد يفتح فمه" [٢٤٠]، ومن جنوده[٢٤١]

د – ثم السكوت وعيًا بطبيعة القوة الجديدة الغاشمة الجاهلة

إذ الكلام في حضرة ذي السطوة والبطش قد يُفضي إلى الهلكة وهو أمام الأرعن مخاطرة، " وفهم الجنود هذه التعليمات بدقة؛ لأن مفضي حين وصل كان بين الحياة والموت. لقد تلقى من الضرب والجر والإهانة ما لا يتحمله شاب في مقتبل العمر. تلقى ذلك صامتًا، فقد كان مستوعبًا الأمر بدقة ويعرف الأسباب أكثر مما يعرفها الذين يكيلون له الضرب" [٢٤٢]

هـ – الصمت وسيلة لتأكيد الكلام (كما كان لتأكيد المكانة منذ قليل)

بإتاحة الفرصة للسامعين باستيعاب ما قيل من قبل والتفكير فيه استعدادًا لما يقال؛ وليكونوا أكثر تقبلاً له: " فلما سمع ما قاله ابن نفاع قرب المسجد من أن ابن الراشد مجرد إبرة، فقد قال في مقهى أبو أسعد في نفس الليلة:

– سبحان الله يا جماعة الخير. . . من به طبع ما تركه!

قال ذلك وصمت فترة غير قصيرة ثم أضاف، وكان حوله عدد من أهل حران:

– اللي ما يخاف من الله خف منه" [٢٤٣]

و – الصمت وسيلة للضغط في سبيل الفوز في المفاوضات

أ – " وبعد أن يخيم الصمت، ويستغرق عبود مرة أخرى في دفتره الكبير، يجد البدوي نفسه مضطرًا للموافقة" (٢٤٤)

ب – " يغيب البدوي ساعة وحين يعود يمد عبود يده بصمت، يحرك أصابعه دلالة أن يدفع له بسرعة، دون تردد أو تأخير، فإذا حاول البدوي من جديد دفع نصف الأجرة، على أن يدفع النصف الآخر في الغد، يغضب عبود، أو يتظاهر بالغضب" (٢٤٥)

جـ – " – باكر نسافر؟

ويهز عبود رأسه مؤكدًا، ويحرك يده طالبًا منه أن يستعجل في تسليم الأجرة، لكن البدوي ما زال متأنيًا هادئًا خائفًا، وهنا يتركه عبود لأن " الدوسة القوية تكسر كما يقول في وصف شطارته" (٢٤٦)، كما أن الصمت وسيلة للضغط في سبيل تحقيق مطالب(الصمت الممزق للأعصاب)(٢٤٧)، وهناك صمت الاستجواب؛ لدفع من تكلمه إلى أن يفضي بما في دخيلة نفسه(٢٤٨)، ومقابله الصمت الدفاعي الذي لمقاومة الاستجواب(٢٤٩)

ز – صمت الخيبة والهزيمة

حين " لم يجرؤ أحد على أن يجيب. ارتد الصمت ثقيلاً كثيفًا" (٢٥٠). وبعد فشل المفاوضات بين أهل حران وأميرها: " خيم الصمت. كان صمتًا ثقيلاً فظًّا، بل وأحس أكثر من ذلك بعدم جدوى الكلام. أما الناس الذين تفاءلوا وتوقعوا، والذين انتظروا عودة الدباسي من دار الإمارة، فقد تأكدوا أن الوضع أصعب من أن ينتهي بسرعة أو كما يريدون؛ ولذلك لم يجدوا ما يقولونه" (٢٥١)

ح – صمت الصمود والصلابة

وهو الاحتمال الثاني لمباراة القوة بين طرفين، كما كان الأول خيبة وهزيمة. ووضحة الحمد" أظهرت مقدارًا هائلاً في الصلابة، وحضَّرَت كل شيء بعناية بالغت

فيها إلى درجة لفتت نظر الكثيرين، فقد كانت في أعماقها تدرك أن رحلة ابنها، هذه المرة، ستطول. . . فلما رفعت إليه وجهها كانت دمعتان تجولان في العينين دون أن تقويا على السقوط. كانت الدمعتان تتحركان بطريقة متحدية وحزينة، وفي اللحظة الأخيرة ربتت على صدره وكتفيه، وتراجعت خطوة إلى الخلف لتقول له دون كلمات: " يمكن أن تذهب" " (٢٥٢)

هكذا أطَّر الصمتُ معادلة القوة من مبدئها إلى منتهاها في رواية التيه، بما يخدم خطابها العام من ناحية، وبناءها السردي من ناحية أخرى. . وبقيت ظاهرة أسلوبية انتبه لها الباحث، هي: تكرر وصف الصمت بالثقيل. ومن الناحية النفسية قد يكون الصمت ثقيلاً ضاغطًا، وقد يكون خفيف الظل، وعلامة من علامات التحرر من قيد الكلام أو عبئه. غير أن القارئ لرواية التيه لا يجد إلا النوع الأول مهيمنًا هيمنة طاغية!

يدل على هذا ذلك الخاطر المعاود Matif –وهو عند النقاد والأدباء والموسيقيين، فكرة أو صورة أو جملة لا تني تتكرر في العمل الفني، وتوظف لإثارة إيحاءات معينة لدى المتلقي(٢٥٣)، أعني تكرر وصف الصمت بكلمة" الثقيل" ، وهاكم أمثلة شواهد: " والسكون يمتد ثقيلاً منذرًا فوق الجميع" (٢٥٤)، وأم الخوش" وكثيرًا ما كانت النساء يشاركنها في نحيب مكتوم، حتى إذا هدأت ران صمت ثقيل موجع" (٢٥٥) – " لم يتكلموا خلال فترة بدت طويلة وثقيلة. كان الصمت مثل خيمة حديدية فوق رءوسهم" (٢٥٦) – " وفي كل المرات كان صويلح يلتفت إليه مستغربًا متسائلاً، أما إذا تكلم فإن صوته يبدو غريبًا وكأنه يصدر عن إنسان آخر، ولذلك ما لبث أن وجد نفسه يغرق في الصمت.

حتى الفلاة التي امتلأت بغناء صويلح وصخبه حين كانا ذاهبين إلى وادي العيون، غرقت في سكون رصاصي ثقيل، وبدت السماء في الليل بعيدة والنجوم

مطفأة" [٢٥٧]، و" لما خيم الصمت مرة أخرى، وبدا الجو ثقيلاً مشحونًا قال ابن الراشد بارتباك:

– دم الرجل لابد يتعوَّض" [٢٥٨] – " وخيم صمت ثقيل، وتوقع الكثيرون أن تحدث أشياء وأشياء" [٢٥٩]. وبعد فشل المفاوضات بين أهل حران وأميرها: " خيم الصمت. كان صمتًا ثقيلاً فظًّا، بل وأحس أكثر من ذلك بعدم جدوى الكلام. أما الناس الذين تفاءلوا وتوقعوا، والذين انتظروا عودة الدباسي من دار الإمارة، فقد تأكدوا أن الوضع أصعب من أن ينتهي بسرعة أو كما يريدون؛ ولذلك لم يجدوا ما يقولونه" [٢٦٠] – " لم يجرؤ أحد على أن يجيب. ارتد الصمت ثقيلاً كثيفًا" [٢٦١] – " وفواز الذي تمالك نفسه، وأصر على أن يكون أقوى من الصخر، خاصة في مواجهة تلك العجوز التي تركها في الحدرة، كان يحس بحزن ثقيل، الأمر الذي أربك صويلح، فتساءلت عيناه مرات كثيرة ما إذا كان خائفًا أو عادت إليه تلك الهواجس التي ملأته في رحلة العودة من وادي العيون إلى الحدرة، ورغم أنه بذل جهودًا كبيرة من أجل أن يخفف عنه، أن يشغله بأمور كثيرة، فقد ظل بادي الحزن. أما حين أخذ يغني، وفعل ذلك عدة مرات، وأبدى رجال القافلة سرورهم بغنائه؛ فقد شعر أن غناءه في هذه المرة حزين وأقرب إلى اللوحة" [٢٦٢]

ولهذا دلالاته على نظرة الكاتب للصمت، وأنه لا يحبه، ولا يميل إليه، كما لا يحب موقف أهل حران من الدخلاء، وصمتهم حين كان ينبغي أن تكون لهم كلمة وموقف؛ ومن ثم وصف الصمت بالثقيل مرارًا لتكثيفه، وتأكيد حضوره، والتململ منه، ورفض المؤلف له. ومعلوم أن الثقل من صفات الأجساد، فوصف الصمت به فيه تجسيد. أو يشفع وصف الصمت بالثقيل بكلمة أخرى تزيد هذا المعنى تأكيدًا، وتعبر مزيد تعبير عن ضيق الكاتب به، كما في: " منذرًا" ، و" فوق الجميع" ، و" موجع" ، و" فظًّا" ، و" كثيفًا" ، وقال في موضع آخر: " فبان الصمت عميقًا مديدًا، حتى ليستطيع الإنسان أن يلمسه بيديه" [٢٦٣]. ثم إنه وصفه بالرصاصي وشبهه بالقبة الحديدية. . وهو ما يذكرنا بليل

امرئ القيس المتطاول الثقيل على نفس الإنسان كما لو أن جملاً برك بثقله فوقه، وأردف أعجازًا وناء بكلكل![٢٦٤]

ولاحظ الباحث أن العراقي غائب طعمة فرمان عنده الوصف نفسه للصمت بالثقل، كما جاء عنده مقرونًا بالرصاص وموصوفًا به: " الخيبة أضافت ثقل الرصاص إلى أجسادهم، والضيق خشَّب صدورهم، وفي الدقائق الأولى من وقوعهم على كراسي الخيزران كان الشاطئ الخالي ملء خيالهم. قضوا لحظات صمت مثقلة سمعوا خلالها أزيز ثلاجة شائخة، وسعالاً صادرًا من أعماق البار" [٢٦٥]

وربما كان هذا دليلاً على أن هذا الصنيع من المشترك الثقافي اللغوي العربي، لكنه عند منيف أشد حضورًا وغزارة وتكثيفًا، ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بالخط العام للأحداث في الرواية كلها. ثم يتفرد كل أديب بأوصافه الأخرى للصمت، كوصفه – عند غائب طعمة – بالبارد مثلاً[٢٦٦]، أوبالخاوي[٢٦٧]، أو الخامل[٢٦٨]، أوالمغيظ[٢٦٩]، أو اللئيم[٢٧٠]، أو المأزوم[٢٧١]، أو بأنه يتضخم[٢٧٢]، أو" صارت للسكون مجسَّات تعبث في الأعصاب الرخوة" [٢٧٣]، أو بأنه مُطْبِق مُطِنّ[٢٧٤]، أومطبق بكثافة[٢٧٥]

الخاتمة وأهم النتائج

١ – الصمت مفردة محورية متواترة الحضور في رواية" التيه" لعبد الرحمن منيف، وهي تبعث – بحضورها وتواترها – خيطًا سرديًّا جماليًّا متصلاً، ينم عن أننا أمام نسيج سردي محكم، كل شيء فيه متعمَّد ومرسومٌ بدقة، بحيث نرى الصمت جزءًا أصيلاً من الحوار ومن البناء الدرامي، كما نراه موظفًا توظيفًا سرديًّا دقيقًا، في تحريك الأحداث إلى الوجهة التي يتغياها المؤلف.

٢ – يدل الصمت على انفعال غالبًا، وعاطفة أحيانًا، أو موقف. والكلام الذي يحل الصمت محله لا يكون كلمة واحدة، وإنما جملة أو أكثر، والراجح أن يكون الأسلوب فيه إنشائيًّا لا خبريًّا.

٣ – يتناسب الصمت – من الناحية الكمية – مع طبيعة الرواية، وطولها، وفحوى الخطاب فيها.

٤ – غالبًا ما يرتبط الصمت في الرواية بمعنى سلبي، كالحزن والخوف والقلق والتردد والضعف والإرهاق، وقلما يحدث العكس، فيدل على الثقة بالنفس أو الصمود أو التحدي.

٥ – والملاحظ أن مساحات صمت الفرح والنشوة أقل كثيرًا جدًّا من تلك المعبرة عن الحزن، حتى ليمكن – بسهولة – تصنيف الجو المسيطر على رواية التيه بالحزن والشجن. وهل في" التيه" إلا الحزن والشجن؟!

٦ – أفضى استعراض مواضع الصمت عند عبد الرحمن منيف وغائب طعمة فرمان وغسان كنفاني وأحمد خالد توفيق إلى أنه أكثر عددًا وأشد تنوعًا عند عبد الرحمن منيف بدرجة لافتة، مما عند سائر الأدباء الذين تطرق هذا البحث لكتاباتهم، وأن الصمت أكثر في الروايات الأقدم، ويقل باضطراد وبوضوح شديد فيما بعد، حتى يغدو نادرًا في روايات أحمد خالد توفيق بشكل عام، وروايته

الأخيرة خاصة؛ ربما لأن رواياته أقصر، أو تغلب عليها الحركة لأنها تخاطب الشباب؛ ولهذا يغلب عليها الحوار لا السرد؛ أو لأن السرعة سمة العصر، بحيث لم يعد هناك وقت للصمت ومحطاته!

٧ – للصمت وظائفه السردية المهمة، التي منها في رواية التيه: كونه حيلة سردية لتضخيم الصوت، أويضفي مزيد أهمية على الكلام التالي وتشويق المستمع له، أو الحدث السابق(مع حركات جسدية مصاحبة مساعدة)، أو يأتي من معينات التخيل أو الاستنتاج، كما أنه أحيانًا وسيلة سردية لازمة للتصوير الأسطوري للشخصية، وجزء من الغموض الذي يغلفها به الكاتب. كما أنه ذو أهمية في مقابل الصوت عند تصوير حالتين أو موقفين متقابلين. فضلاً عن دوره في نقل الرسائل والمضامين الفكرية عبر توظيفه توظيفًا دقيقًا، ومما نجده من هذا النوع في رواية التيه ما عبر به الكاتب عن أن المبادرة والفعل بيد المتكلم وحده!

٨ – وبلغت براعة الكاتب في التشكيل السردي ذروتها في إدخاله الصمت في لُحمة تصويره لمعادلات القوة. كما بدت في مفرداته، ووصفه الصمتَ مرارًا بالثقيل، ولهذا دلالاته على نظرة الكاتب للصمت، وأنه لا يحبه، ولا يميل إليه، كما لا يحب موقف أهل حران من الدخلاء، وصمتهم حين كان ينبغي أن تكون لهم كلمة وموقف. واتضح للباحث أن هذا الوصف من المشترك الثقافي اللغوي العربي، لكنه عند منيف أشد حضورًا وغزارة وتكثيفًا، ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بالخط العام للأحداث في الرواية كلها.

ثم من توصيات هذا البحث:

١ – مد نطاق الدراسات للصمت، ليشمل دراسةالإدغام، والإيجاز بنوعيه، والحذف بصوره المعروفة في البلاغة والنحو، والكف عن درجة من درجات الأداء الصوتي(كما في النهي عن الخضوع بالقول، وعن سجع الكهان، وعن خطبة

المعتدة بلفظ صريح، وعن دعاء النبي كما يدعو بعضنا بعضًا أو أن نجهر له بالقول). وكذلك الرمز والتعريض والكناية والتورية وأشباهها من صور الغموض الفني المتعمد، التي يراها الباحث درجات من الصمت.

٢ – توسيع نطاق دراسة الصمت في الرواية العربية، بهدف الوصول إلى قواعد كلية أشد إحكامًا لوجوده وقيمته وأدواره الفنية.

حواشي البحث

(١) د. وليد سعيد شيمي: بلاغة الصمت. دراسة تداولية، مجلة كلية دار العلوم، جامعة الفيوم، العدد ٣٦، يونيو ٢٠١٥م، ص٢

(٢) يُنْظَر غيض من فيض هذا في:

البخاري: صحيح البخاري، تخريج وضبط صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د. ت، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، الأحاديث ٦٤٧٤ – ٦٤٧٨، ص١٦٣٢، ١٦٣٣، وشرح هذه الأحاديث عند: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أشرف على مقابلة النسخ عبد العزيز بن باز، المكتبة السلفية، القاهرة، د. ت، ص ٣٠٨ – ٣١٢، مسلم: صحيح مسلم، تخريج وضبط صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١ ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، كتاب الزهد والرقائق، باب حفظ اللسان، الحديثان ٧٣٧٥، ٧٣٧٦، ص١٤٦٣

(٣) عن أهمية الصمت والوصية به في الأدب العربي، يُنظر: الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، سلسلة مكتبة الجاحظ(٢) ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧ ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، جـ١ ص ١٩٤ وما بعدها، الآبي: نثر الدر، علق عليه مطهر الحجيّ، سلسلة المختار من التراث العربي(٧٢) ، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٩٧م، جـ٤ ص٣٨، والثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة ذخائر العرب(٥٧) ، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ص٣٣٥، والتمثيل والمحاضرة، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٣م، ص٤١٩، ٤٢٠، ٤٢٥، ٤٢٦، وأسامة بن منقذ: لباب الآداب، تحقيق أحمد محمد شاكر، منشورات مكتبة السنة، القاهرة، ط١ ١٣٥٤هـ؛ فله فصل في فضل الصمت وحفظ اللسان، أورد فيه آيات وأحاديث نبوية وأقوالاً للصحابة والتابعين، والأدباء والشعراء، ص٢٦٩ – ٢٧٨، وللسيوطي: حسن السمت في الصمت، مختصر كتاب الصمت لابن أبي الدنيا، تحقيق أحمد محمد سليمان، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دسوق، مصر، ٢٠١٠م

(٤) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، سلسلة مكتبة الجاحظ(٢) ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧ ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص٧٦

(٥) غير خافٍ حضوره في المسرح أيضًا، في صورة المسرح الصامت(البانتومايم) . وعن ذلك، يُنظر: أحمد زكي: اتجاهات المسرح المعاصر. فنون العرض، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص١٦٩ وما بعدها

(٦) في إطار منهجية البحث لابد من عينة مختارة تكون أساسًا للبحث، ويُقْصَد بها تلك المجموعة الفرعية من عناصر مجتمع البحث التي تُختار بعناية لتمثل المجتمع تمثيلاً دقيقًا قدر الإمكان. انظر: د. درّ محمد: أهم مناهج وعينات وأدوات البحث العلمي، مجلة الحكمة للدراسات التربوية والنفسية، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، العدد التاسع، يناير ٢٠١٧م، ص٣١٣، ٣١٥

(٧) هذا إذا افترضنا أنه لم يعمل فيها إلا بين صدور أول جزء منها عام ١٩٨٢م، وآخر جزء عام ١٩٨٨م. وهي مكونة من حوالي ألفين وخمسمائة صفحة، أو٢٤٥٥ صفحة تحديدًا: الجزء الأول ٦١١ صفحة، والثاني ٦٠٩ صفحة، والثالث ٤٠١صفحة، والرابع ٢٥٧ صفحة، أما الخامس فعدد صفحاته ٥٧٧ صفحة. ورواية التيه تبدأ فعليًّا في الصفحة التاسعة، وتنتهي في الصفحة السابعة بعد المائة السادسة من الجزء الأول، أما ما قبل ذلك وما بعده فتشغله الأغلفة والإهداء وصفحات تحمل بيانات النشر، وأخرى بيضاء. . . ثم إن أولى الإشارات إلى الصمت تأتي في الصفحة الحادية والعشرين، بعد مقدمة الرواية التي يصف فيها المؤلف " وادي العيون" . وما يقال من أن خماسية عبد الرحمن منيف تحمل قدرًا من المعارضة لبعض الأنظمة الحاكمة أدعى للالتفات لثرائها" الصمتي" !

(٨) أديب عراقي بارز، يمتد إنتاجه عبر النصف الثاني من القرن العشرين كله، وله إلى جانب الروايات قصص قصيرة، وترجم أكثر من ثلاثين كتابًا إلى العربية. اختار الباحث منها ثلاثة مؤلفات من ثلاث فترات من مسيرته الإبداعية، هي: " النخلة والجيران" ، التي نشرت عام ١٩٦٦م، و" آلام السيد معروف" ، المنشورة عام ١٩٨٠م، و" المركب" عام١٩٨٩ م.

(٩) غسان كنفاني أديب وسياسي فلسطيني شهير، وأشهر رواياته هذه التي اختارها الباحث: " رجال في الشمس" ، التي نُشِرَت أول مرة في بيروت، عام ١٩٦٣م، والصمت أهم محاورها

(١٠) أشهر كاتب عربي معاصر، فيما يسمى أدب الشباب، وفي أدب الرعب، والفنتازيا، والخيال العلمي!، وله إنتاج غزير في هذا كله، وفي المقال الصحفي وغير الصحفي، وفي القصة القصيرة، وله ترجمات عدة مشهورة. لكن الرواية هي الغالبة؛ إذ له منها ست سلاسل، تحوي مائتين وستًّا وثلاثين رواية، في ثلاثة عقود، هي العقد الأخير من القرن العشرين، وعقدين بعده من القرن الحادي والعشرين، أي أنه معاصر" جدًّا" ، ثم إنه أثَّر في عدد غير قليل من الأدباء الشباب من بعده. واختار الباحث له ثلاث روايات من سلاسل رواياته، هي: " آخر أيام الرايخ" ، التي نُشرَت عام ٢٠٠١م، و" أسطورة الرقم المشئوم" ، المنشورة عام ٢٠٠٢م، و" قشعريرة" المنشورة في العام نفسه.

(١١) الصاحب بن عباد: المحيط في اللغة: المحيط في اللغة، تحقيق محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط١ ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، مادة" س ك ت" ، جـ٦ص١٨٠، وابن منظور: لسان العرب، مادة" ص م ت" ، والرازي: مختار الصحاح، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٧ ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، المادة نفسها.

(١٢) ابن فارس: مقاييس اللغة، راجعه وعلق عليه أنس محمد الشامي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، مادة" س ك ت" ص٤١٢

(١٣) الجوهري: الصحاح. تاج اللغة وصحاح العربية، راجعه واعتنى به د. محمد محمد تامر وأنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م. مادة" س ك ت" ص٥٤٧، والرازي: مختار الصحاح، مادة" س ك ت" ، والزمخشري: أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، مادة" س ك ت" .

(١٤) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط٤ ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م. ص٤١٦، وابن سيده: المخصص،

قدم له د. خليل إبراهيم جَفَّال، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط١ ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، جـ١ ص٢٢٨، والزمخشري: أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، مادة" س ك ت"

(١٥) الصاحب بن عباد: المحيط في اللغة، مادة" س ك ت" ، جـ٦ص١٨٠، والراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص٤١٦

(١٦) يُنظَر: الصاحب بن عباد: المحيط في اللغة، مادة" ن ص ت" ، جـ٨ص١٢١، والرازي: مختار الصحاح، مادة" ن ص ت"

(١٧) الرازي: مختار الصحاح، مادة" ص غ ا" ، والراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص٤٨٥

(١٨) يُنْظَر بعض هذه الفروق عند: الصاحب بن عباد: المحيط في اللغة، مادة" ص م ت" ، جـ٨ص١٣٨، ، والشريف الجرجاني: التعريفات، ص١٣٦، ثم هي مجموعة عند: الكفوي: الكليات. معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٢ ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٥٠٩

(١٩) ابن سيده: المخصص، جـ١ ص٢٢٨

(٢٠) الكفوي: الكليات، ص٨٨٧، والراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص٨١١

(٢١) الكفوي: الكليات، ص٧١١، والمذكور هنا الشطر الأول من بيت شعر من الطويل، وشطره الثاني: " وحدَّرَتَا كالدُّر لما يُثَقَّب" ، وهو في لسان العرب دون نسبة، يُنظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة" ق و ل"

(٢٢) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص٨١٢

(٢٣) الكفوي: الكليات، ص٧١١

(٢٤) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص٨١١

(٢٥) الرازي: مختار الصحاح، مادة" ن ط ق"

(٢٦) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص٧٢٢

(٢٧) السابق، ص٧٢٣

(٢٨) السابق، ص٢٢٢

(٢٩) يُنْظَر: الصاحب بن عباد: المحيط في اللغة، مادة " س ك ت" ، جـ٦ ص١٨٠، ومادة" ص م ت" ، جـ٨ص١٣٨، ومادة" ن ص ت" ، جـ٨ ص١٢١، ومادة" ص غ و" ، جـ٥ ص١٠٦، ومادة" ق ول" جـ٦ ص٢٢، ومادة" ك ل م" ، جـ٦ ص٢٧٣، ومادة" ح دث" ، جـ٣ ص٣٤

(٣٠) د. علي عبيد: بلاغة الصمت من خلال نماذج من الرواية العربية، مقال نُشِر بمنتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، في الثالث عشر من مايو عام ٢٠١٣م

(٣١) د. بهاء الدين محمد مزيد: تبسيط التداولية. من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١ ٢٠١٠، ص٦٩، والترقيم من صنع الباحث

(32) Ephratt,Michal, the functions of silence ,journal of pragmatics ,vol 40(11) ,2008

(٣٣) كمال سعد أبو المعاطي: الوظيفة التداولية للصمت، مجلة جامعة الملك عبد العزيز: الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد ٢٤، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، ص١٦٦

(٣٤) أمين يوسف غراب: شباب امرأة(رواية) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص١٦١

(٣٥) الآبي: نثر الدر، جـ٤ ص ٢٩٦

(٣٦) عبد الرحمن منيف: مدن الملح جـ١ (التيه) ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١١ ٢٠٠٥م، ص٧٩، س٢١

(٣٧) عبد الرحمن منيف: التيه، ص ١٩٠، س٢٢ – ٢٧، ويُنظر كذلك: ص١٩٦، س١٠ – ١٤، ص٤٨٧، س٤ – ٦، ص٤٠٩، س١٨ – ٢٠

(٣٨) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٤١، س١١، ١٢، وعن صمت الحزن يُنظَر أيضًا: التيه، ص٤٨٢، وغائب طعمة فرمان: النخلة والجيران، ص٤٦، ص١٧٢، س٨، وآلام السيد معروف، ص٢١، الفقرة الأخيرة، وغسان كنفاني: رجال في الشمس، ص١٨، س ٥، ٦ من أسفل، ص٢٠، س ٢، ٣، وأحمد خالد توفيق: آخر أيام الرايخ، ص١١٩

(٣٩) يُنْظر وصف هذا النوع عند غسان كنفاني: رجال في الشمس، ص١٠١ آخر سطر، ص١٠٥ السطران الخامس والسادس

(٤٠) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٥٥٧

(٤١) السابق، ص٥٥٨

(٤٢) السابق، ص٤٨٩، س٦، ويُنظَر كذلك: ص٢٩٢، ٣٩٧، س٨، ٩، ص ٤٨٨، س٢٤ – ٢٦

(٤٣) السابق، ص١٠٠

(٤٤) السابق، ص١٧٦، ويُنظر أيضًا: غائب طعمة فرمان: النخلة والجيران، ص١٩٢، وأحمد خالد توفيق: آخر أيام الرايخ، ص١٣٤

(٤٥) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢٧٠

(٤٦) السابق، ص٢٧٢، ويُنْظَر كذلك: غائب طعمة فرمان: النخلة والجيران، ص١١٢

(٤٧) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢٨٠

(٤٨) السابق، ص٢٨٠

(٤٩) السابق، ص٤٣، ومن هذا النوع ما عندغائب طعمة فرمان: المركب، ص٨٩

(٥٠) السابق، ص٣٢٦

(٥١) غائب طعمة فرمان: المركب، ص ٢٠٥، ٢٢٣

(٥٢) الآبي: نثر الدر، جـ٣ ص١٦٠

(٥٣) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢٦٤، ٥٧٤، ويُنظَر كذلك: غائب طعمة فرمان: النخلة والجيران، ص١٦٩

(٥٤) الآبي: نثر الدر، جـ٣ ص٢٩٨، ويُنظر أيضًا: عبد الرحمن منيف: التيه، ص٣١٩، وغائب طعمة فرمان: المركب، ص ٣٠، وعبد العزيز بركة ساكن: الرجل الخراب، ص٢٥

(٥٥) غائب طعمة فرمان: المركب، ص٨٠، ويُنظر كذلك: ص١٢٠، الفقرة الأخيرة، ص٢٦٧، س٢٣، ٢٤، وأحمد خالد توفيق: آخر أيام الرايخ، ص٢٩، ٣٣، ٦٤، ٧٧

(٥٦) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢١، ويُنظر كذلك: التيه، ص٥٤٧

(٥٧) السابق، ص١٥٨، السطر الثالث

(٥٨) السابق، ص٢١٣، ويُنْظَر كذلك: ص٢٠٦، وغائب طعمة فرمان: آلام السيد معروف، ص١٣، والمركب، ص١١٥، الفقرة الأولى، ١٣٧، ١٣٨، وغسان كنفاني: رجال في الشمس، ص٤٧ السطر الثاني عشر، وأحمد خالد توفيق: آخر أيام الرايخ، ص٩، الفقرة الأخيرة.

(٥٩) عبد الرحمن منيف: التيه، ص١٧١

(٦٠) السابق، ص١٧٢، ويُنظر أيضًا: ص١٧١، وغائب طعمة فرمان: النخلة والجيران، ص١٩٦، والمركب، ص ٢٢٣، الفقرة الأخيرة

(٦١) انظر: عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢٥٧، ويُنظر كذلك: ص٣١٤، وغائب طعمة فرمان: آلام السيد معروف، ص١٠٤، وأحمد خالد توفيق: آخر أيام الرايخ، ص١١، ٢٧،

(٦٢) جورج يول: التداولية، ترجمة د. قصي العتَّابي، الدار العربية للعلوم ناشرون – بيروت، ودار الأمان – الرباط، ط١ ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص١١٤

(٦٣) عبد الرحمن منيف: التيه، ص١٧١، ويُنْظَر أيضًا: ص٧٩، ١٧٠، وغائب طعمة فرمان: المركب، ص٨٧، ٢٦١

(٦٤) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٤١٦، ٤١٧، وعن صمت الترقب يُنظر أيضًا: ص٣٤، ٥٨٦، ٥٤٠، ٥٩٢وأحمد خالد توفيق: أسطورة الرقم المشئوم، ص١٣٧، س١ – ٦، وقشعريرة، ص١١١

(٦٥) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢٤٨

(٦٦) وردة غديري: سمات الاقتصاد اللغوي في العربية. دراسة وصفية تحليلية، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر – باتنة، الجزائر، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٤

(٦٧) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢١٧، ويُنظر كذلك: التيه، ص٣٧٥، الفقرة قبل الأخيرة، ص٣٧٦ الفقرة الثالثة، وغسان كنفاني: رجال في الشمس، ص٨٢ الأسطر من السابع إلى التاسع، ص٨٧ الفقرة الأخيرة، ص٩٢ في السطرين الحادي عشر والثاني عشر، ص٩٣ السطر الأول

(٦٨) عبد الرحمن منيف: التيه، ط١١ ٢٠٠٥م، ص٢١٥، ويُنظر كذلك: التيه، ص ١٤٧ السطران السابع والثامن من أسفل، ص ١٦١ السطران الخامس والسادس، ص١٩٨، ص٥٠٠، وغائب طعمة فرمان: آلام السيد معروف، ص٢١، والمركب، ص٩٧، ١٢٠، ١٣٨، وغسان كنفاني: رجال في الشمس، ص٩٢ السطران الحادي عشر والثاني عشر، وأحمد خالد توفيق: آخر أيام الرايخ، ص٦٤

(٦٩) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٣٥

(٧٠) السابق، ص٣٦

(٧١) السابق، ص٢٥٨، ويُنظر أيضًا: ص٢٥٩، وعن صمت الإصغاء، يُنظر كذلك: التيه، ص٢٩٣

(٧٢) السابق، ص٣٤٧، ويُنظر كذلك: التيه، ص٣٥٦، ٥٠٤

(٧٣) د. نادرة جميل حمد: مهارات التواصل الاجتماعي عند المرشدين التربويين، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العراق، نيسان ٢٠١٩م، ص١٠٨٧

(٧٤) الآبي: نثر الدر، جـ٣ ص٦٧

(٧٥) السابق، جـ٣ ص٧٢

(٧٦) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٥٨٢

(٧٧) السابق، ص٣٦١

(٧٨) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٣٦، ويُنظر كذلك: التيه، ص٥٠١، ٥٥٢، وغائب طعمة فرمان: آلام السيد معروف، ص٤٦، ٦٧، ٨٣، غسان كنفاني: رجال في الشمس، ص١٠، وأحمد خالد توفيق: آخر أيام الرايخ، ص، وقشعريرة، ص٩

(٧٩) يُنظر: مجمع الأمثال، جـ١ ص٣٥٦

(٨٠) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٣٩٢

(٨١) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٣٩٤، وينظر كذلك: ص٣٦٨، ٣٧١، وغائب طعمة فرمان: المركب، ص٨٩، ١٣٧،

(٨٢) د. علي عبيد: بلاغة الصمت، الثالث عشر من مايو عام ٢٠١٣م

(٨٣) د. محمد الباردي: الصمت والنص المفتوح. قراءة في رواية فردوس لمحمد البساطي، مجلة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، العدد ١٥، ٢٠٠٦م، ص٤٩

(٨٤) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٤٥٨، ويُنظر كذلك: غائب طعمة فرمان: آلام السيد معروف، ص٣٨، س١٤ – ١٩، وأحمد خالد توفيق: آخر أيام الرايخ، ص٦٣

(٨٥) يُنظر: جورج يول: التداولية، ص١١٧، ١١٨

(٨٦) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٣٦، ويُنظر كذلك: التيه، ص١٧٩

(٨٧) جورج يول: التداولية، ص١١٣

(٨٨) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٧٩

(٨٩) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢٤٣، ويُنظر كذلك: التيه، ص٣٢٠، ٥١٤، ٥١٥، وغائب طعمة فرمان: آلام السيد معروف، ص١١٤، والمركب، ص٢٧٢، وغسان كنفاني: رجال في الشمس، ص٨٧ الفقرة الأخيرة

(٩٠) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢٦٣، ويُنظر كذلك: التيه، ص٢٥٩، ٢٦٢، ٤٠٨، ٤٥٩، ٤٦٤، ٤٦٠، ٥٢٤، ٥٢٥، وغائب طعمة فرمان: المركب، ص١٢

(٩١) د. هدسون: علم اللغة الاجتماعي، ترجمة د. محمود عياد، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٠م، ص١٨٣

(٩٢) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٣٣١

(٩٣) انظر: البقاعي: نظم الدرر جـ٩ ص ٤٢، ٤٣، والصمت في هذه الرواية له دور محوري في تحريك الأحداث

(٩٤) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢٩٣، ويُنظر من هذا النوع: . س. أ. هاريسون: الزوجة الصامتة(رواية) ، ترجمة مروان سعد الدين، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٥م، ص١١١

(٩٥) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢١٧، ويُنْظَر أيضًا: غائب طعمة فرمان: المركب، ص١٤٤، ١٥٠، ١٥١

(٩٦) غائب طعمة فرمان: النخلة والجيران، ص١٠٥، المركب، ص٢١، ١٦٠، ٢٢٥

(٩٧) غائب طعمة فرمان: المركب، ص ٢٦، ١٥٢

(٩٨) السابق، ص ٧٢

(٩٩) غائب طعمة فرمان: النخلة والجيران، ص٢٨، ٢٠٥،، وآلام السيد معروف، ص١١٨، الفقرة الأولى، والمركب، ص٥، ١٤، ١١٤الفقرة الأخيرة، ٢٨٢، ٢٨٦، ويُنظر أيضًا: أحمد خالد توفيق: قشعريرة، ص١٤١

(١٠٠) غائب طعمة فرمان: آلام السيد معروف، ص٢٧

(١٠١) غائب طعمة فرمان: النخلة والجيران، ص١٦٩، والمركب، ص ١٩٩، ٢٢٢

(١٠٢) غائب طعمة فرمان: النخلة والجيران، ص١٧٤

(١٠٣) غائب طعمة فرمان: النخلة والجيران، ص١٧٠، والمركب، ص ٩٤

(١٠٤) غائب طعمة فرمان: النخلة والجيران، ص١٦٢، ٢٠٤ويُنظر كذلك: ص٢٠٥، وآلام السيد معروف، ص١٠١، ١٣٤، والمركب، ص١٢٢(ثلاث مرات) ، ١٢٤

(١٠٥) غائب طعمة فرمان: المركب، ص١٤٥

(١٠٦) غسان كنفاني: رجال في الشمس، ص٤١ في السطرين الثالث والرابع

(١٠٧) السابق، ص٧٩ آخر سطر، ص٩٣ السطر الثالث عشر

(١٠٨) أحمد خالد توفيق: آخر أيام الرايخ، ص١٦

(١٠٩) عن الشق الثاني من المحادثة – المسمى بالاستجابة، يُنْظَر: جورج يول: التداولية، ص١٩٧

(١١٠) د. علي عبيد: بلاغة الصمت من خلال نماذج من الرواية العربية

(١١١) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٤٨١، ٤٨٢، ويُنظر كذلك: التيه، ص٤١٣، وغائب طعمة فرمان: آلام السيد معروف، ص١٧١، الفقرة قبل الأخيرة

(١١٢) أحمد خالد توفيق: قشعريرة، ص٢٣

(١١٣) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٤١٧

(١١٤) السابق، ص٤١٧، ويُنظر كذلك: ص٤١٨، ٤٢٠، ٤٢٤، ٤٢٨، ٤٢٩،

(١١٥) كمال سعد أبو المعاطي: الوظيفة التداولية للصمت، ص١٦٣

(١١٦) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٤٣٠

(١١٧) د. محمد الباردي: الصمت والنص المفتوح، ص٥٠

(١١٨) يُنْظَر: أحمد خالد توفيق: آخر أيام الرايخ، مقدمة الرواية، ص٤، ٥

(١١٩) د. علي عبيد: بلاغة الصمت، الثالث عشر من مايو عام ٢٠١٣م، ومحيي الدين حمدي: مدخل إلى الصمت، ص٨، ٩

(١٢٠) د. محيي الدين حمدي: مدخل إلى الصمت في النص المسرحي، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، العدد الثامن، يناير ٢٠١١م، ص١

(١٢١) د. محمد الباردي: الصمت والنص المفتوح، ص٥٠

(١٢٢) كذا يعرفه جورج يول: التداولية، ترجمة د. قصي العتَّابي، الدار العربية للعلوم ناشرون – بيروت، ودار الأمان – الرباط، ط١ ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص١٨٦، وعن السياق: مفهومه وأنواعه، يُنْظَر: د. محمود السعران: اللغة والمجتمع. رأي ومنهج، الإسكندرية، ط٢ ١٩٦٣م، ص٣٠، وعبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب. مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط١ مارس ٢٠٠٤م، ص٤٠ – ٤٨

(١٢٣) جورج يول: التداولية، مقدمة المترجم، ص١٣

(١٢٤) السابق، ص١٩

(١٢٥) يُنْظَر: فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، ط١ ٢٠٠٧م، ص٤٥، وصابر الحباشة: التداوليةوالحجاج. مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط١ ٢٠٠٨م، ص١١، ود. مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب. دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، د. ت، ص١٦، ود. وليد سعيد شيمي: بلاغة الصمت. دراسة تداولية، ص١، وسامية بن يامنة: الاتصال اللساني بين

البلاغة والتداولية، مجلة دراسات أدبية، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية، الجزائر، العدد الأول، جمادى الأولى ١٤٢٩هـ/مايو ٢٠٠٨م، ص٥٨

(١٢٦) سامية بن يامنة: الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، ص٥٢

(١٢٧) جاك موشلر وآن ريبول: القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين، بإشراف عز الدين المجدوب، سلسلة اللسان، المركز الوطني للترجمة، منشورات دار سيناترا، تونس، ٢٠١٠م، ص٤٨٢

(١٢٨) جاك موشلر وآن ريبول: القاموس الموسوعي للتداولية، ص٤٨٢

(١٢٩) جورج يول: التداولية، ص١٨٨

(١٣٠) الجاحظ: البيان والتبيين، ص٧٦

(١٣١) جورج يول: التداولية، ص١٩

(١٣٢) السابق، ص١٩٨

(١٣٣) السابق، ص٢٢

(١٣٤) السابق، ص٥١

(١٣٥) في هذا يُنظر: أحمد خالد توفيق: أسطورة الرقم المشئوم، ص٩٨، س١١ – ١٤، ونجد شيئًا مشابهًا عند أيفر تونش: أبسنت. ليلة الجنية الخضراء(رواية) ، ترجمة ريهام طه، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١ ٢٠١٤م، ص٨٨

(١٣٦) بيير بورديو: التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، ترجمة درويش الحلوجي، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، دمشق، ط١ ٢٠٠٤، ص٧٠

(١٣٧) تُنظر أمثلة على ذلك عند غسان كنفاني: رجال في الشمس، ص٥٣ في السطرين الثالث والرابع، ص٥٩ السطرين الأول والثاني

(١٣٨) فاطمة عرفات الحلو: الاتصال الصامت وتأثيره في الآخرين، ص٥

(١٣٩) د. زهرة وهيب خدرج: لغة الصمت. دراسة في أسرار لغة الجسد وفنونها في عالم الأعمال، دار الراية للنشر والتوزيع، عمَّان، الأردن، ط١ ٢٠١٥م، ص٦٨ وما بعدها

(١٤٠) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٣١٠

(١٤١) السابق، ص٥٠٣

(١٤٢) يُنظر: فاطمة عرفات الحلو: الاتصال الصامت، ص٢٥

(١٤٣) يُنظر: السابق، ص٣٨

(١٤٤) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٧٩، ويُنظر أيضًا: التيه، ص٤١٥، ٤١٦

(١٤٥) السابق، ص٤٠١، س١٢، ١٣

(١٤٦) السابق، ص٢٠١

(١٤٧) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢٠٠، ويُنظر أيضًا: التيه، ص٤٥، س٣ – ٦، ٤١٤، ٥٠٨، وغسان كنفاني: رجال في الشمس، ص٥٣السطر الثالث، ص٩٥ السطران الأول والثاني،

(١٤٨) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٣٦٧

(١٤٩) السابق، ص٣١١

(١٥٠) السابق، ص٢٠١

(١٥١) السابق، ص٥٩١

(١٥٢) السابق، ص٣٠٤

(١٥٣) السابق، ص١٤٧، الفقرة قبل الأخيرة.

(١٥٤) السابق، ص١٧٤، وعن دور العينين في التواصل الصامت، يُنظر كذلك: التيه، ص٣٣، ٣٥٦، ٣٦٢، ٤٧٩، ٥٤٥، وأحمد خالد توفيق: قشعريرة، ص١٣، ١٤

(١٥٥) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢٠٢، ويُنظر كذلك: أحمد خالد توفيق: قشعريرة، ص٢٩

(١٥٦) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٣١٣

(١٥٧) السابق، ص٣٢٣

(١٥٨) السابق، ص٤٨٠

(١٥٩) السابق، ص٥٢٣

(١٦٠) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٣٠٣، ويُنظر كذلك: غائب طعمة فرمان: آلام السيد معروف، ص٤٤، ١١٧، والمركب، ص١٢٤

(١٦١) د. محيي الدين حمدي: مدخل إلى الصمت في النص المسرحي، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر – بسكرة، الجزائر، العدد الثامن، يناير ٢٠١١م، ص١، وعن تأكيد الاتصال الصامت للرسائل اللفظية، انظر: فاطمة عرفات الحلو: الاتصال الصامت وتأثيره في الآخرين. دراسة قرآنية موضوعية" ، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٥

(١٦٢) Ephratt,Michal, the functions of silence ,journal of pragmatics ,vol 40(11) ,2008,p1909

(١٦٣) وقد يكون هذا لعوامل بيئية، تحدث عنها عبد الرحمن منيف: التيه، ص ١٦٧ السطر الخامس.

(١٦٤) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٤١١، ٤١٢

(١٦٥) السابق، ص٢٣

(١٦٦) السابق، ص١٦٤

(١٦٧) السابق، ص٥٨٨

(١٦٨) السابق، ص١٧٧

(١٦٩) السابق، ص٢٨٩

(١٧٠) يُنظر: غسان كنفاني: رجال في الشمس، ص١٦ – ١٨ في مواضع عدة

(١٧١) كما في الفقرة الثانية ص ١٦٦

(١٧٢) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٣٩

(١٧٣) السابق، ص١٩٦، س١٠ – ١٤

(١٧٤) السابق، ص٤٢٧

(١٧٥) السابق، ص٤٩٥

(١٧٦) السابق، ص٤٩٧

(١٧٧) السابق، ص٥٧٨

(١٧٨) السابق، ص٥٢٤، ٥٣٥

(١٧٩) ولعل مما يوضح الأمر مزيد إيضاح، أن نوازن بين تحريض إحدى شخصيات غائب طعمة فرمان المباشر الخاص على كسر حاجز الصمت، والوشاية بزميله وهذا التحريض العام المتدرج المحسوب. غائب طعمة فرمان: آلام السيد معروف، ص٨٤، ص١٢٤

(١٨٠) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢١٤، ويُنظر عن الصمت المؤكِّد لما بعده كذلك: أحمد خالد توفيق: آخر أيام الرايخ، ص١٠٤، وقشعريرة، ص٩١

(١٨١) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٣٩٥، ٣٩٦، ويُنظر كذلك: غائب طعمة فرمان: النخلة والجيران، ص١٨٩، ١٩٧، وآلام السيد معروف، ص١٣٢

(١٨٢) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٥١٣، وينظر كذلك: ص٤٤، ٤٥، ٦٢، غائب طعمة فرمان: النخلة والجيران، ص٢٣، ٥٨، المركب، ص١٦

(١٨٣) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٦٢

(١٨٤) يُنظر في تصوير ذلك عند عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢٨٥

(١٨٥) السابق، ص٣٧٦ الفقرة الأولى

(١٨٦) السابق، ص٥٥٥

(١٨٧) السابق، ص٢٢، ٢٣

(١٨٨) السابق، ص٤٥٢

(١٨٩) السابق، ص٤٥٨

(١٩٠) السابق، ص٢٣٧

(١٩١) السابق، ص٥٨١

(١٩٢) السابق، ص٢١٢

(١٩٣) السابق، ص٢١٢

(١٩٤) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢٨٧، وعن التوظيف الروائي للصمت في مقابل الصوت، يُنظر كذلك: غائب طعمة فرمان: آلام السيد معروف، ص١٣٣

(١٩٥) عبد الرحمن منيف: مدن الملح جـ١ (التيه) ، ط١١ ٢٠٠٥م، ص٥٧٨

(١٩٦) جورج يول: التداولية، ص١٨٧

(١٩٧) السابق، ص٦٨

(١٩٨) السابق، ص١٨٥

(١٩٩) عبد الرحمن منيف: التيه، ص ٢٣

(٢٠٠) السابق، ص٣٢

(٢٠١) السابق، ص٣٢

(٢٠٢) السابق، ص٣٢

(٢٠٣) السابق، ص٣٢

(٢٠٤) السابق، ص٣٣

(٢٠٥) السابق، ص٤٠٢، س٩ – ١١

(٢٠٦) السابق، ص٥٥٩

(٢٠٧) السابق، ص٥٦١

(٢٠٨) السابق، ص٥٧٠

(٢٠٩) السابق، ص٣٠٨

(٢١٠) السابق، ص٣٠٩

(٢١١) السابق، ص٣٠٩

(٢١٢) السابق، ص٣١٠

(٢١٣) السابق، ص٢٥١

(٢١٤) يُنْظَر: غسان كنفاني: رجال في الشمس، ص١٦ السطرين الثاني عشر والثالث عشر، وص١٧ السطرين التاسع والثالث عشر

(٢١٥) يُنْظَر: غسان كنفاني: رجال في الشمس، ص١٠١، ١٠٢

(٢١٦) يُنْظَر: السابق، ص١٠٧، ١٠٨

(٢١٧) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢٥٢

(٢١٨) السابق، ص٢٥٤

(٢١٩) السابق، ص٢٥٥

(٢٢٠) السابق، ص٢٥٦

(٢٢١) كمال سعد أبو المعاطي: الوظيفة التداولية للصمت، ص١٦٤

(٢٢٢) فاطمة عرفات الحلو: الاتصال الصامت: ص٩٥ وما بعدها

(٢٢٣) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢٢

(٢٢٤) السابق، ص٤٩٥

(٢٢٥) السابق، ص١٨٣

(٢٢٦) الآبي: نثر الدر، جـ٣ ص٦٥

(٢٢٧) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٣٦٧، ويُنظر أيضًا: غسان كنفاني: رجال في الشمس، ص٢٣ الفقرة الأولى

(٢٢٨) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢٠٨

(٢٢٩) السابق، ص٢٠٧

(٢٣٠) السابق، ص٢٠٧

(٢٣١) عنه، يُنْظَر: جورج يول: التداولية، ص١٨٩، وشواهده عند: غائب طعمة فرمان: المركب، ص١١٨، وآلام السيد معروف، ص٤١

(٢٣٢) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢٢٩

(٢٣٣) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٢٣٠، وعن صمت الضعف، يُنظر أيضًا: غائب طعمة: المركب، ص٣٤، ٧٣

(٢٣٤) يُنْظَر: جورج يول: التداولية، ص١٩٧

(٢٣٥) يُنْظَر: السابق، ص١١٥

(٢٣٦) الجوهري: الصحاح، مادة" سكت" ، ص٥٤٧، وابن منظور: لسان العرب، مادة" صمت"

(٢٣٧) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٥٤٣

(٢٣٨) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٥٤٤

(٢٣٩) بيير بورديو: التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، ترجمة درويش الحلوجي، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، دمشق، ط١ ٢٠٠٤، ص٧٢، ٧٣

(٢٤٠) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٥٨٣

(٢٤١) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٥٩٤، ويُنظر كذلك: أحمد خالد توفيق: آخر أيام الرايخ، ص٤٨

(٢٤٢) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٥٤٤

(٢٤٣) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٣٥٨، ويُنظر كذلك: غائب طعمة فرمان: آلام السيد معروف، ص١٢٦

(٢٤٤) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٤٤٨

(٢٤٥) السابق، ص٤٤٨

(٢٤٦) السابق، ص٤٤٩

(٢٤٧) غائب طعمة فرمان: النخلة والجيران، ص١٢٢، ١٩٤، آلام السيد معروف، ص ٢٢، المركب، ص٢٢، ١١٧

(٢٤٨) غائب طعمة فرمان: النخلة والجيران، ص٢٦، المركب، ص ١١٨

(٢٤٩) كما عند غائب طعمة فرمان: المركب، ص٤٧، ٤٨

(٢٥٠) عبد الرحمن منيف: التيه، ص١١٧

(٢٥١) السابق، ص٥٨٨

(٢٥٢) السابق، ص١٧٣

(٢٥٣) د. رشيد العناني: عالم نجيب محفوظ من خلال رواياته، سلسلة كتاب الهلال، العدد ٤٥٥ – ربيع الأول ١٤٠٩هـ/نوفمبر ١٩٨٨م، ص٤٦

(٢٥٤) عبد الرحمن منيف: التيه، ص٦٥

(٢٥٥) السابق، ص٦٢

(٢٥٦) السابق، ص ١٤٧ السطران التاسع والعاشر

(٢٥٧) السابق، ص١٥٨، الفقرة الأخيرة

(٢٥٨) السابق، ص٢٩٤

(٢٥٩) السابق، ص٣٥٩

(٢٦٠) السابق، ص٥٨٨

(٢٦١) السابق، ص١١٧

(٢٦٢) السابق، ص١٧٤

(٢٦٣) السابق، ص٤١٨

(٢٦٤) يُنظر البيت الخامس والأربعون من معلقة امرئ القيس، في: الأنباري: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق عبد السلام محمد هارون، سلسلة ذخائر العرب(٣٥) ، دار المعارف، القاهرة، ط٥، د. ت، ص٧٥

(٢٦٥) غائب طعمة فرمان: المركب، ص ١٣

(٢٦٦) غائب طعمة فرمان: آلام السيد معروف، ص٣٤

(٢٦٧) غائب طعمة فرمان: المركب، ص٢٧١

(٢٦٨) غائب طعمة فرمان: آلام السيد معروف، ص٣٥

(٢٦٩) السابق، ص٣٣

(٢٧٠) غائب طعمة فرمان: المركب، ص٢٢، ٢٥٠

(٢٧١) غائب طعمة فرمان: النخلة والجيران، ص١٦٩

(٢٧٢) غائب طعمة فرمان: آلام السيد معروف، ص٤٢

(٢٧٣) غائب طعمة فرمان: المركب، ص٢٢،

(٢٧٤) غسان كنفاني: رجال في الشمس، ص١٨

(٢٧٥) السابق، ص٤١، ٩٣ السطر الثالث عشر

قائمة بالمصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية

الآبي(أبو سعد منصور بن الحسين)(ت٤٢١هـ):

١ – نثر الدر، اختار النصوص وقدم لها وعلق عليها مطهر الحجيّ، سلسلة المختار من التراث العربي(٧٢)، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٩٧م.

أحمد خالد توفيق:

٢ – آخر أيام الرايخ، سلسلة فانتازيا(٢٧)، روايات مصرية للجيب، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١م.

٣ – أسطورة الرقم المشئوم، سلسلة ما وراء الطبيعة(٥١)، روايات مصرية للجيب، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٤ – قشعريرة، سلسلة سافاري(٢٢)، روايات مصرية للجيب، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٢م.

أحمد زكي:

٥ – اتجاهات المسرح المعاصر. فنون العرض، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.

أسامة بن منقذ:

٦ – لباب الآداب، تحقيق أحمد محمد شاكر، منشورات مكتبة السنة، القاهرة، ط١ ١٣٥٤هـ.

أمين يوسف غراب:

٧ – شباب امرأة(رواية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٩م

الأنباري(أبو بكر محمد بن القاسم)(ت٣٢٨هـ):

٨ – شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق عبد السلام محمد هارون، سلسلة ذخائر العرب(٣٥)، دار المعارف، القاهرة، ط٥، د. ت

البخاري(أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي)(ت٢٥٦هـ):

٩ – صحيح البخاري، تخريج وضبط صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د. ت.

د. بهاء الدين محمد مزيد:

١٠ – تبسيط التداولية. من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١ ٢٠١٠م.

الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري)(ت ٤٢٩هـ):

١١ – التمثيل والمحاضرة، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٣م

١٢ – ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة ذخائر العرب(٥٧)، دار المعارف، القاهرة، د. ت.

الجاحظ(أبو عثمان عمرو بن بحر)(ت٢٥٥هـ):

١٣ – البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، سلسلة مكتبة الجاحظ(٢)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧ ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

الجرجاني(علي بن محمد بن علي الشريف الحسني)(ت٨١٨هـ):

١٤ – كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥م.

الجوهري(أبو نصر إسماعيل بن حماد)(ت٣٩٨هـ):

١٥ – الصحاح. تاج اللغة وصحاح العربية، راجعه واعتنى به د. محمد محمد تامر وأنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

ابن حجر العسقلاني(أحمد بن علي)(ت ٨٥٢هـ):

١٦ – فتح الباري بشرح صحيح البخاري، بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، أشرف على مقابلة النسخ عبد العزيز بن باز، المكتبة السلفية، القاهرة، د. ت.

الرازي (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر)(ت بعد٦٦٦هـ):

١٧ – مختار الصحاح، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٧ ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.

الراغب الأصفهاني(الحسين بن محمد بن المفضل)(ت في حدود ٤٢٥هـ):

١٨ – مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط٤ ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

د. رشيد العناني:

١٩ – عالم نجيب محفوظ من خلال رواياته، سلسلة كتاب الهلال، العدد ٤٥٥ – ربيع الأول ١٤٠٩هـ/نوفمبر ١٩٨٨م

الزمخشري(أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد)(ت٥٣٨هـ):

٢٠ – أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

ابن سيده (أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي)(ت٤٥٨هـ):

٢١ – المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٢٢ – المخصص، قدم له د. خليل إبراهيم جَفَّال، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط١ ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

السيوطي(جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري)(ت٩١١هـ):

٢٣ – حسن السمت في الصمت، مختصر كتاب الصمت لابن أبي الدنيا، تحقيق أحمد محمد سليمان، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دسوق، مصر، ٢٠١٠م

صابر الحباشة:

٢٤ – التداوليةوالحجاج. مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط١ ٢٠٠٨م.

الصاحب بن عباد(كافي الكفاة الصاحب إسماعيل بن عباد)(ت٣٨٥هـ):

٢٥ – المحيط في اللغة: المحيط في اللغة، تحقيق محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط١ ١٤١٤هـ/١٩٩٤م

عبد الرحمن منيف:

٢٦ – مدن الملح جـ١ (التيه)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١١ ٢٠٠٥م.

عبد العزيز بركة ساكن:

٢٧ – الرجل الخراب(رواية)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط١ ٢٠١٥م.

عبد الهادي بن ظافر الشهري:

٢٨ – استراتيجيات الخطاب. مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط١ مارس ٢٠٠٤م.

غائب طعمة فرمان:

٢٩ – آلام السيد معروف(قصص)، دار الفارابي، بيروت، ط١ ١٩٨٢م.

٣٠ – المركب(رواية)، دار الآداب، ط١ ١٩٨٩م.

٣١ – النخلة والجيران(رواية)، الأعمال الكاملة(١)، دار بابل ودار الفارابي، ط١ ١٩٨٨م.

غسان كنفاني:

٣٢ – رجال في الشمس(رواية)، مؤسسة غسان كنفاني الثقافية، دار منشورات الرمال، قبرص، ط١ ٢٠١٣م.

ابن فارس(أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا)(ت ٣٩٥هـ):

٣٣ – مقاييس اللغة، راجعه وعلق عليه أنس محمد الشامي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

الكفوي(أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني)(ت١٠٩٤هـ):

٣٤ – الكليات. معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٢ ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

كمال سعد أبو المعاطي:

٣٥ – الوظيفة التداولية للصمت، مجلة جامعة الملك عبد العزيز: الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد ٢٤، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م

د. محمود السعران:

٣٦ – اللغة والمجتمع. رأي ومنهج، الإسكندرية، ط٢ ١٩٦٣م

د. مسعود صحراوي:

٣٧ – التداولية عند العلماء العرب. دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، د. ت

مسلم(الحافظ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري)(ت٢٦١هـ):

٣٨ – صحيح مسلم، تخريج وضبط صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١ ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري)(ت٧١١هـ):

٣٩ – لسان العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٤م.

الميداني(أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري)(ت٥١٨هـ):

٤٠ – مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

ثانياً: المصادر والمراجع المعربة

بيير بورديو:

٤١ – التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، ترجمة درويش الحلوجي، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، دمشق، ط١ ٢٠٠٤م.

جاك موشلر وآن ريبول:

٤٢ – القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين، بإشراف عز الدين المجدوب، سلسلة اللسان، المركز الوطني للترجمة، منشورات دار سيناترا، تونس، ٢٠١٠م.

جورج يول:

٤٣ – التداولية، ترجمة د. قصي العتَّابي، الدار العربية للعلوم ناشرون – بيروت، ودار الأمان – الرباط، ط١ ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

فيليب بلانشيه:

٤٤ – التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، ط١ ٢٠٠٧م.

د. هدسون:

٤٥ – علم اللغة الاجتماعي، ترجمة د. محمود عياد، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٠م.

ثالثاً: الرسائل الجامعية

فاطمة عرفات الحلو:

٤٦ – الاتصال الصامت وتأثيره في الآخرين. دراسة قرآنية موضوعية، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

وردة غديري:

٤٧ – سمات الاقتصاد اللغوي في العربية. دراسة وصفية تحليلية، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر – باتنة، الجزائر، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

رابعاً: البحوث والدوريات والموسوعات

د. درّ محمد:

٤٨ – أهم مناهج وعينات وأدوات البحث العلمي، مجلة الحكمة للدراسات التربوية والنفسية، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، العدد التاسع، يناير ٢٠١٧م

سامية بن يامنة:

٤٩ – الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، مجلة دراسات أدبية، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية، الجزائر، العدد الأول، جمادى الأولى ١٤٢٩هـ/مايو ٢٠٠٨م.

د. علي عبيد:

٥٠ – بلاغة الصمت من خلال نماذج من الرواية العربية، مقال نُشِر بمنتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، في الثالث عشر من مايو عام ٢٠١٣م.

كمال سعد أبو المعاطي:

٥١ – الوظيفة التداولية للصمت، مجلة جامعة الملك عبد العزيز: الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد ٢٤، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

د. محمد الباردي:

٥٢ – الصمت والنص المفتوح. قراءة في رواية فردوس لمحمد البساطي، مجلة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، العدد ١٥، ٢٠٠٦م.

د. محيي الدين حمدي:

٥٣ – مدخل إلى الصمت في النص المسرحي، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر – بسكرة، الجزائر، العدد الثامن، يناير ٢٠١١م.

د. نادرة جميل حمد:

٥٤ – مهارات التواصل الاجتماعي عند المرشدين التربويين، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العراق، نيسان ٢٠١٩م.

د. وليد سعيد شيمي:

٥٥ – بلاغة الصمت. دراسة تداولية، مجلة كلية دار العلوم، جامعة الفيوم، العدد ٣٦، يونيو ٢٠١٥م.

خامساً: المصادر والمراجع الأجنبية

56 – Ephratt, Michal, the functions of silence, journal of pragmatics, vol 40(11),2008